إطلالة على

التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء السابع عشر

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

ح عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر ، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله

إطلالة على التراث ج ١٧./ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر.-

الرياض، ١٤٢٤هـ.

٤٠٠ ص ، ١٤,٥ × ٢١ سم

ردمك : ٠ - ٢٦٤ - ٤٤ - ٩٩٦٠

١ - الأدب العربي- مجموعات ٢ - الحكايات الشعبية العربية

أ - العنوان

ديوي ٨١٠,٨ ١٤٢٤/٦٨٦٢

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٦٨٦٢

ردمك : ٠ - ٢٦٤ - ٤٤ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) مقدمة

هذا الجزء من كتابي «إطلالة على التراث» طال حَمْله، وتأخر عن الجزء الذي سبقه، لأنه أخذ من بين فكي الأسد، وفك الأسد ذو أسنان، أحدها الوقت، والآخر ظروف العمل، والثالث الواجبات الاجتماعية بأنواعها، ورابعها السفر، وخامسها الزكام، وأمور صحية أخرى، تأتي عارضة، مع ما يتخلل ذلك من مراجعة الأطباء، وسادسها وسابعها، إلى آخر العدد مما لا يكاد يحصى.

والكتابة تحتاج إلى معلومات، والمعلومات تحتاج إلى بحث وتوثيق، وسبك المعلومات يحتاج إلى صفاء ذهن، وهدوء محيط، ووقت متواصل، حتى لا تنقطع الأفكار، وهذا يستوجبه ضعف

الذاكرة، في هذه السن، وتوقع النسيان، والنسيان والتذكر في عراك مستمر، نجاح النسيان فيه هو الأغلب، ويكاد يكون القاعدة، والتذكر هو الخارج عنها.

أحياناً يسبح بي الخيال في آفاق بعيدة، وأجواء واسعة، فأتمنى المستحيل: أتمنى أن يكون هناك وقت يُعار، فأستعير ما أضيفه إلى ساعات نهاري، أو ساعات ليلي، خاصة من أولئك الذين يضيعون أوقاتهم في لعب الورق[1]، أو في «طق الحنك» والتلذذ بأحاديث الغيبة، وبَشْر جلود الناس، ولكن نهاية التمني توقظ السارحِ فيه، وتعيده إلى أرض الحقيقة، وأحياناً بطريقة مُرة، مثل الذي أراد أن

(١) أنا لم أتعلّم لعب الورق في الصغر، وانشغلت عن تعلمه في الكبر، ولهذا أغبط الذين يلعبونه بإتقان، لما فيه من رياضة فكرية، وفي يوم من الأيام، ونحن مسافرون من مكة إلى عنيزة، كان معاون السائق أهم مني، لأنه يكمل الأربعة!!

يبيع سمنه وهو نائم تحت جرّة السمن في فراشه، وبيده عصا، ثم يشتري بقيمته أغناماً، يأخذها إلى المرعى، فينميها، ولا يعدم أن يزورها الذئب، فيضربه، هكذا، بهذه العصا، وبهذه الضربة انكسرت الجرّة، وساح عليه السمن، وضاع رأس المال، والربح المتخيل.

على أي حال في هذا الجزء تركزت النصوص على عدد محدد من الكتب، لأن الفكرة التي يدور عليها لا تحتاج إلى مصادر متعددة، وما أُتي به منها ما هو إلا نماذج لما هو مكرر في الكتب الأدبية، والمصادر التاريخية، ومراجع التراجم، وأبحاث اللغة العربية، والكتب هذه، مما استقينا منه، ومما لم نستق، يأخذ المتأخر منها من المتقدم، والمتتبع لما فيها من نصوص يعجب من التداخل بينها، وكثرته، وتختلف الأسباب، إما أن يكون الناقل يكتب عن

أمر متخصص، فيأخذ معلوماته من كتاب عام، أو أن الناقل صاحب غرض، وقد يكون الغرض واضحاً، وقد لا يكون، فيحتاج حينئذ إلى دراسة متأنّية، وبحث عميق، تبين هذه الدراسة، وهذا البحث، ما قد يكون أدخل على النص من زيادة، أو اختزال، والغرض من ذلك، وقد يكون تغيير النص بإبدال كلمة مكان أخرى، فالاسم يبدل باسم آخر، والزمن يُغيّر بآخر، والمكان بغيره، وهكذا.

وقد يتبين أن السبب في تغيير الكلمات، أو الزيادة والنقصان لهدف علمي، أو هدف سياسي، أو هدف قبلي، أو هدف يخص الأرض أو القطر، أو المهنة، فقد يكون الخبر عن خليفة خيّر، في زمن سابق، فيحوره الكاتب، ويرويه عن خليفة متأخر، لأنه معجب بهذا الخليفة، وقد يكون حاكماً ظالماً جائراً، فيستعير صفاته هذه، ويلبسها حاكماً

متأخراً، لأنه ساخط عليه، وكلا الكاتبين لا تهمهما الحقيقة أمام الهوى والغرض، ولكن الاستعارة هذه قد لا تأتي متقنة، ويتبين أن بعضها ركب بعضاً، أو جانباً منها ناقض الآخر، أو دخلت أسماء من قرن في قرن آخر، فيبرز الخلل، وتبدو السوءة، ويظهر المُخْفَى، ويبطل العمل، ويضيع الهدف.

ومن أسوأ أسباب النحل والتأليف، التعصب الديني، والعنصري، والمهني، والقبلي، أو الأُسري، أو السياسي، ويمكن أن نختار نموذجاً لواحد من هذه الجوانب، لنكشف بعض الجوانب التي قد لا تتضح إلا بإعطاء مثال عليها، وربما كان التعصب السياسي هو أكثرها وقوعاً، وأشدها حدّة، لاكتمال أسباب السخط على الحاكم، أو الرضى عنه، وهارون الرشيد من أبرز الحكام الذين لمس سيرتهم التشويه، وهذا مثل واحد على ذلك، أورده الأستاذ

شوقي أبو خليل[1] في دراسة قام بها عن هذا الخليفة، وهي دراسة متأنية متبصرة ومقدرة، وقد أكد فيها عفته وصلاحه وعدله واستقامته، وحبه لما يرضي اللّه، وبُعده عما يغضبه، ودحض حجج الذين حاولوا أن يسودوا صفحة حياته، ويلونوا أديم سيره بما يخالف الواقع، ويجانب الحقيقة، وبيَّن الأستاذ شوقي الأسباب التي دعت المغرضين إلى فعلهم المزري، ونبّه إلى مداخلهم وأغراضهم، والسبل التي سلكوها للوصول إلى أهدافهم، وكيف تم لهم ذلك، والأثر الذي أحدثه ما وضعوه، وما نشروه.

والمثل الذي ساقه الأستاذ شوقي يوضح بجلاء أحد المناهج التي يتخذها المغرضون مركبا لتزويرهم، وذلك بحذف جزء منير من قصة وافية،

---

(١) هارون الرشيد، أمير الخلفاء، وأجل ملوك الدنيا، (دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).

بحيث يبقى الجزء المظلم، وهي خطوة واضحة في التلاعب، تدينهم أمام النقد والتمحيص، وتري سوء نيتهم، وهدفهم الرديء، وهذا يوجب على الباحثين الحرص على التمحيص الدقيق، والمقارنة الوافية، وتتبع الثابت من النصوص في كتب الأدب والتاريخ، ليفضح به غير الثابت مما هو مزور، أو مضطرب.

والمثل الجيد الذي أورده الأستاذ شوقي هو[1]:

«حدّث إبراهيم بن المهدي قال:

استزرت الرشيد بالرقة، فزارني، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريص، مثل قريص السمك، فاستصغر القطع، وقال:

لِمَ صغّر طبّاخك تقطيع السمك؟

فَقلت: يا أمير المؤمنين، هذه أَلْسنَة السمَك.

---

(١) هارون الرشيد، ص (٥٠).

قال: فيشبه أن يكون في هذا الجام مئة لسان!

فقال مراقب خادمه: يا أمير المؤمنين، فيها أكثر من مئة وخمسين.

فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده، وحلف أن لا يطعم شيئاً دون أن يحضره ألف درهم.

فلما حضر المال، أمر أن يُتصدّق به، وقال: أرجو أن يكون كَفَّارة تسرفك في إنفاقك على جام سمك ألف درهم.

ثم ناول الجام بعض خدمه، وقال:

اخرج من دار أخي، ثم انظر أول سائل تراه، فادفعه إليه.

قال إبراهيم: وكان شراء الجام على الرشيد (كذا) بمئتين وسبعين ديناراً، فغمزت بعض خدمه للخروج مع الخادم، ليبتاع الجام ممن يصير إليه.

وفطن الرشيد فقال له:

يا غلام، إذا دفعته إلى سائل فقل له:

يقول لك أمير المؤمنين: احذر أن تبيعه بأقل من مئتي دينار، فإنه خير منها.

ففعل الخادم ذلك، فوالله ما أمكن خادمي أن يخلصه من السائل إلا بمئتي دينار» (نقله الأستاذ شوقي من مروج الذهب ٣/ ٣٧٣ الطبعة الفرنسية).

ويعلّق الأستاذ شوقي، فيقول:

«ويروي بعضهم هذه الحادثة من حياة الرشيد مبتورة ناقصة، ليثبت ما في نفسه من حقد تجاه الرشيد، ويرويها كدليل على إسراف وترف الرشيد؛ فيذكر أنه قُدِّم للرشيد ـ بينما كان في الرقة ـ طبق من ألْسنَة السمك، كلّف أكثر من ألف درهم.

ويَكتفي بهذا، لأن تمام الحادثة يفسد عليه ما في نفسه من حقد على هذا التاريخ الماجد، فلا

يذكر غضب الرشيد ممن أشرف على تحضير هذا الطبق، وأنه نبّه على إسرافه، وأنه أحضر ألف درهم تصدّق بها كفارة ذلك، فاعتبر الرشيد أن تحضير الطبق كله ذنب يحتاج إلى كفارة، ثم تصدّق بالطبق كله».

ومن النصوص التي يحاول قائلوها تبييض صفحة البرامكة فيها، وإضفاء أوصاف تؤكد ما كانوا عليه من خُلق فاضل حميد، قصة كانت لغيرهم، فصرفت إليهم، وهذه رواها عبدالملك الثعالبي في كتابه[1] آداب الملوك، قال:

«(٣٠٦) وكان خالد بن برمك أول من سمّى السؤّال الزُّوّار، وذلك أن عبدالله بن بريك النميري صار إليه في جماعة من الناس، ومن الأجواد، ليستميحوه، فقال خالد:

(١) آداب الملوك، تحقيق الدكتور جليل العظمة، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى: ١٩٩٠م.

أنا واللّه أستقبح لهم أن يُدعَوا السؤَّال، ولكني أسميهم الزُّوّار.

فقال له عبداللّه بن شريك: واللّه ما ندري أي بُرَّيك أجدّ عندنا أصلتنا أم تسميتنا؟»[1].

وقيل في هذا أبيات، وأردف الثعالبي يقول: «(٣٠٨)، وذكر الصولي أن هذا الخبر لغير خالد، فروى بإسناد له، أن المشاور بن النعمان لما ولّي كور فارس، أتاه الناس مستميحين إياه، فقيل له: قد اجتمع سؤَّالك.

فقال: ما أقبح هذا من اسم! هؤلاء الزوّار، فسموا الزوّار من ذلك اليوم»[2].

هذا نصّ تنبه له الثعالبي، ونبّه إليه، وهو يدخل ضمن العصبية الشعوبية التي تحدث عنها بعض الكُتّاب، ولفت النظر إلى ما قامت به من

(١، ٢) ص (١١٧).

تلوين للأدب ونصوصه في ذلك الوقت، ومدى نجاحها في إخفاء قصدها، وما رمت إليه، فمن ابتداع أقوال، ووصف أفعال، لم تحدث، تمجيداً للبرامكة وأمثالهم، إلى تحويل نصوص، وتحويرها، لتكون في صالحهم.

هذا الجزء السابع عشر من «**إطلالة على التراث**» فيه مقالتان مطولتان، رغم أن ما جاء فيهما ليس إلا أمثلة لبعض ما هو في الكتب الأدبية والتاريخية، وليس استقصاءً، فلو استقصي كل ما جاء عن واحد منهما لجاء مجلدات، لأنهما موضوعان مهمان لأهل ذاك الزمن، ولنا اليوم: أحدهما عن النساء، والثاني عن الصحراء، وكلاهما يوحي للناس بشتى الأفكار، المغرية بالتدوين والكتابة، سواء كان واقعاً فعلاً، أو متصوراً متخيلاً.

وقد حاولت أن أبرز ما تبين لي من ذلك، سواء

كان أصلاً، أو مؤلفاً، مستوحاً من الخيال. والأصل، المستقى من الواقع، قد لا يخلو من آفة، فهو وصف بَشَر، يُخطئ ويصيب، ويخضع ما يكتبه لثقافته، وقوة لغته، ودقة نظره، بل أحياناً لحالته الاجتماعية، وما إذا كان سعيداً، أو يعاني من مشاكل أسرية أو اجتماعية، كل هذه الأمور ترمي ظلالاً على ما يكتب، ولهذا قال العماد الأصفهاني كلمته الحكيمة:

«إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه، إلا قال في غده: لو غُير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل؛ وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل على استيلاء النقص على جُملة البشر».

وقد يكون مأتى الخلل من اختلاف الرواية لحدث واحد معين، رآه أشخاص متعددون، فوصفه كل واحد منهم وصفاً مختلفاً عن الآخر، فينتج عن هذا حيرة

لدى القارئ، وزعزعة لثقته في القول والقائل.

وقد يكون الاختلاف في نقل رواية شفهيه، سمعها عدد من الأشخاص في مجلس واحد، ثم رواها كل واحد منهم لغيره بصيغة مختلفة، فأحدهم زاد فيها، والآخر أنقص منها، وثالث جاء بها محرّفة، ورابع وَهَمَ في اسم من ورد فيها، أو في زمنه، أو في مكانه، أو في الوقت من النهار، وقد يكون سبب هذا الاختلاف ناتجاً عن اختلاف في الفكر، أو الثقافة، أو التربية، أو الموقع الاجتماعي، فالراوي عندما سمعها لأول مرة ركّبها على صورة معروفة له، ومخزونة في ذهنه، هي صفة بيت سكنه، أو شجرة يمر بها، أو بئر اعتاد أن يمتح منها، أو قطعة أثاث في بيته، أو في بيت جاره، أو أحد أقاربه، موقعاً كان أو هندسة، جدةً أو قدماً، فهو يُلبس ما سمعه من الرواية على ما في ذاكرته من

الصور التي عرفها أو ألفهاَ، وهذا يخرج الرواية عن مجراها في خطوة أولىَ، ثم تسير خارج المجرى، مبعدة في كل خطوة عن النص الأصلي.

أذكر أنه في إحدى سنوات الثمانينات الهجرية، في مدينة الرياض، حدث أن انطلق فيل في حديقة الحيوان، وقتل سائسه، وعاش في الحديقة حتى استطاع من فيها أن يستعين بمن قضى عليه، وقتله بالرصاص.

وقد طلبت من طلابي في ذلك الأسبوع أن يكتب كل واحد منهم ما سمعه، فجاءت الكتابات متباينة، حتى إني الآن لا أذكر، حقيقةً، كيف قُضي على هذا الحيوان، بعض الطلاب قال: إن حراس الحديقة تجمّعوا وأطلقوا عليه الرصاص، وبعضهم قال: استعانوا بفرقة من الجيش، وبعضهم قال: إن الطبيب البيطري نصح بأن يطلق عليه

رصاصة واحدة تحت الأذن، وهذه تكفي لأنها في مقتل، وهكذا انتهى الأمر باختلاف كبير، حتى ضاعت الحقيقة.

هذا فيما سُمع، أما فيما يُقرأ فقد أجريت تجربة مع هؤلاء الطلاب، وهم طلاب السنة الرابعة في كلية الآداب بجامعة الملك سعود، قسم التاريخ، وطلاب السنة الثالثة، قسم الجغرافيا، في عام ١٣٨٧هـ وكان الدرس عن النصوص التاريخية.

ولطرافة التجربة أتيت بها في نهاية كتيب أسميته «في طرق البحث»، وهو صغير الحجم، وليس فيه إلا هيكل عظمي لما يحتاجه طالب الجامعة، ليعرف طريقه إلى المراجع، والاستفادة منها، والطرق المتبعة، تمهيداً للبحوث.

والتجربة كانت طريفة، لما انتهت إليه، وما أكدته من صدق القول المأثور: «ما آفة الأخبار إلا

رواتها»، وكانت التجربة أخذ نص مختصر جداً من كتاب «كليلة ودمنة»، لعبدالله بن المقفع[1]، ثم إعطاءَه لأول طالب في الفصل، وطلبت منه أن يقرأه بتمعن، ثم يعيده لي، ويحاول أن يكتب من ذهنه ما قرأه في الورقة التي أطلعته علي ما فيها، وبعد أن كتب ما كتب من الذاكرة عَدَدْتُ هذا أصلاً للنص، وأعطيتهُ للطالب الذي بجواره، وطلبتُ منه أن يقرأه بتمعن، فإذا ما انتهى أخذتُ منه ورقة زميله، وطلبتُ منه أن يكتب من الذاكرة ما قرأه في ورقة زميله.

واستمرت هذه الطريقة، تسير فيها ورقة بعد أخرى، من طالب إلى طالب، وانتهى الدرس، وكان خمسين دقيقة، ولولا ضيق الوقت، لاستمر الأمر

(١) الصفحة (٤٤) وما بعدها، من كتابي «في طرق البحث»، الطبعة الأولى، الرياض ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، (وما أخذته اختصار من قصة: «مثل المصدق المخدوع» في كليلة ودمنة، ص (٦٥) طبعة دار الشروق ـ بيروت، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

إلى أن لا يبقى في الفصل من لم يساهم، وكان الطالب الثامن هو آخر طالب كتب من ذاكرته ما كتبه الطالب السابع قبله.

وكانت النتيجة عجيبة حقاً، وتُري بما لا يدع مجالاً للشك، ما تتعرض له الرواية من تشويه غير مقصود، فكيف لو كان مقصوداً؟!

ولعل الفائدة لا تكتمل إلا إذا جئنا بالنص الأصل، ثم بالنص بعد أن مرّ على ثمانية طلاب، وسوف يتبين الفرق، ولو جاء أديب في العصر العباسي، ولم يصله إلا النص الأخير، لحاول أن يجعل له معنى، بعد أن تلاشى معناه الأصل، ولصال وجال، وأتى بما هو طريف مفيد، ولكنه لا يمت إلى الحقيقة بصلة.

وهذا هو النص الأصل:

«كان أحد الرجال الأغنياء، نائماً، هو وزوجته

في بيته، فسمع بعضَ اللصوص على سطح منزله، يدبرون خطة لسرقة أمواله، فأراد الرجل الغني أن يتخلص منهم بحيلة، فقال لزوجته، وكانت الليلة مقمرة:

أتدرين كيف جمعت أموالي؟

ثم بدأ يشرح لها، فقال:

كنت آتي إلى سطوح المنازل، في الليالي المقمرة، وآتي إلى كوّة في السطح، ينزل منها ضوء القمر فأعتنق الضوء، وأنزل إلى البيت سالماً، وأقوم بالسرقة.

فلما سمعه اللصوص بدؤوا يطبقون طريقته، فكانت النتيجة أنّ كل واحد منهم يسقط على أم رأسه، أو على أحد أعضائه، فيفقد قوته.

فلما تكاملوا دعا الشرطة، فأمسكت بهم".

وننتقل الآن إلى الطالب الأول وما كتبه بعد

أن قرأ النص الأصل بتمعن، كتب من ذهنه ما يأتي:

«كان أحد الرجال نائماً، هو وزوجته في بيته، بسطح منزله (كذا)، وفي ليلة مقمرة، وبينما هو يتحدث إلى زوجته، سمع بعض اللصوص في منزله (كذا)، وكانوا يضعون خطة لسرقة أمواله، فأخذ يحدث زوجته، فقال لها: أتدرين كيف جمعت هذه الأموال؟ فأخذ يقص عليها كيف جمعها، فقال، كنت أخرج في الليل، وأصعد إلى سطوح المنازل، وفي ضوء القمر أطل (كذا) من كوة سطح المنزل، فأنزل إلى البيت سالماً، وأجمع ما به من مال، فلما سمعه اللصوص أراد كل واحد منهم أن يطبق طريقته، فأخذوا يتساقطون على رؤوسهم الواحد بعد الآخر، فلما تجامعوا جميعهم، ذهب واستدعى الشرطة التي أتت، وقبضت عليهم، فنجحت حيلته».

وعند تحليلي لهذا النص، ومقارنته بالأصل، قلت: «قد غيّر هذا الطالب بعض الحقائق الجوهرية، وزاد على الأصل، وأنقص منه، وقدّم وأخّر، مما غير المعنى، وانحرافه عن الأصل سوف ـ كما نرى ـ يجر غيره إلى البُعد عن الأصل حتى تكاد تنطمس علائمه؛ فقد جعل الرجل وزوجته نائمين على سطح البيت، واللصوص في البيت نفسه، وعمي عن الطالب الذي بعده القصد من حديث الرجل مع زوجته عن كيفية تحصيله ما له، والكوّة أصبح يطل منها»[1].

واستمر النقص، أو الزيادة، وعدم الفهم من الطلاب الذين جاؤوا بعده واحداً بعد واحد، فأبعدوا عن الهدف بعداً كبيراً، ولم يعد للقصة معنى، أو مدلول، وننتقل إلى آخر طالب في التجربة، لنرى كيف انجرف سيله، وأبعد عن مجراه، تاركين ما

(١) ص (٤٧).

بينهما لئلا يطول علينا الأمر.

والنص الثامن كما يلي:

«في يوم من الأيام كان رجل جالساً مع زوجته، وشينما (كذا) على هذه الحال سمع صوتاً، فظن الزوج أنه صوت لص، وخاف على ماله من اللص، فسأل زوجته عن كيفية إبعاد المال عن اللص، فسألته زوجته: كيف جمع المال؟

فأجابها: بأنه جمعه من سطح المنزل».

وفي هذا الجزء من الإطلالة أمثلة متعددة على كل نوع من النصوص، الأصل منها والمفتعل، وتبيان، ما أمكن، لمدخل الخلل، سواء جاء هذا عن طريق التعصب للقبيلة، أو للمهنة، أو للمنطقة، أو للحكم، أو لأسباب أخرى مختلفة.

هذا الجزء انقطع لهذا، فجاءت المقالات طويلة أو قصيرة، حسب ما اقتضته كثرة النصوص،

أو الاتجاهات، ولهذا أطول المقالات كانت تتحدث عن الصحراء وابن الصحراء، لتنوع ما قيل في هذا، وتشعب طرقه، وتعدد مراميه، وتعارض بعضه مع بعض، وتماثل الاتجاه في بعض الأغراض، أو تضادها، وما في بعضها من القوة أو الضعف، الوضوح أو الغموض، التعميم أو التخصيص، وما إلى ذلك مما استوجب الوقفة عنده.

والموضوع الطويل الثاني عن النساء، وهن نصف المجتمع، فلا غرو أن تأتي المقالة عنهن ضافية، وقد بينت الأسباب التي توجب الاهتمام بما جاء عنها في التراث، وجمع بعض ما جاء فيه، مما قيل عنها، مع تمحيصه، ونحن، الرجال، نقوم بهذا حتى لا نعدّ مقصرين في حقها، عندما تبدأ هي تستدرك، بعد أن تعلمت، ما فاتنا القيام به، فتملأ أرفف المكتبات بما تكتبه هي عن النساء،

مضاهاة للرجال فيما كتبوه عن أنفسهم، ولعل هذا يوحي لبعض المؤهلات أن يعنين بما ورد عن المرأة من نصوص في التراث، تبين بتجرد ما قامت به في الماضي، وما قيل عنها.

ما جاء عنهن في هذه المقالة هو ما يدخل في حجم الكتاب في حدود ما خطط له، ويلاحظ أن المصادر المستقاة منها النصوص قليلة، لأنه قصد أن يكون ما يقال أمثلة وليس إحصاءً.

وكل مقالة في الكتاب لا تخلو من شبح الوضع، أو النحل، أو التأليف، وادّعاء كاتبها أن ما ذكره حادث فعلاً، ومع من ورد اسمه في الخبر، أو القصة، على أي حال، ما أبديته من آراء هو انطباع تبلور في ذهني مع مرور السنوات، وبعد تصفح الصفحات في أجزاء كتب التراث، بعد التدبر، والتمحيص، والمقارنة، وتتبع النصوص في مراجعها المختلفة.

وفي هذا الجزء أبرزتُ مظهراً من مظاهر النحل، جاء أحياناً عن طريق التقليد، وسار على نهج نص سابق، لاقى استحساناً عبر العصور، وخطي بقبول وترديد، فرح به الصغار وأعجب به الكبار، فأغرى هذا بعض الأدباء، وظن أنه يمكن أن ينسج على منواله، وأن يدخل بضاعته إلى الأسواق على أنها صناعة أصل، لم يدخلها التقليد، ويؤمل أن تقبل كما قُبل النص المقلَّد، وببراعة، وعمق تفكير أبعد عن غرض الأصل إلى غرض آخر، جاء متناسقاً مع الهدف، وموحياً بفائدة تُغري بقبوله دون نقاش، وقد يكون صاحب النص الأصل هدف إلى زرع خُلُقْ، أو محاربة رذيلة، أو تقويم معوج، أو لفت نظر إلى منتقد يؤمل إصلاحه أو سير حسن يؤمل أن يواظب عليه، ويرجى أن يتمسك به، وينتشر بين الناس، وقد يكون لرسم

صورة جَمَال، أو ابتداع خطة باهرة، أو رشاقة أسلوب، أو وسيلة تسلية، فيركب الفكر على الحيوان، ويجعله وسيلة العرض، ومركبة التنقل بين الناس، وعبر الأجيال؛ يأتي به رمزاً لما يريد أن يكون عليه ابن آدم.

خير مثل على هذا قصة يعرفها التلاميذ في الصفوف الأولى من الدراسة، وتكاد تكون في أكثر الكتب الأدبية، نهجها بديع، وصياغتها جذابة، وهي قصة تحاكم الضبع والثعلب عند الضب.

وسوف أوردها هنا، رغمِ شهرتها، لتسهيل المقارنة بينها وبين ما جاء مقلداً لها:

«يقال إن الضبع وجدت تمرة، فاختلسها الثعلب، فلطمته، فلطمها، فتحاكما إلى الضب..

فقالت: يا أبا الحسل.

قال: سميعا دعوت.

قالت: جئناك نحتكم إليك.

قال: في بيته يؤتى الحكم.

فقالت: إني التقطت تمرة.

قال: حلوة فكليها.

قالت: إن الثعلب أخذها.

قال: لنفسه بغى الخير.

قالت: فلطمته.

قال: حُرٌّ انتصر.

قالت: اقض بيننا.

قال: قد قضيت.

فذهبت أقواله مثلاً»..

بعض الكُتّاب، ممن جاء فيما بعد، أعجبه هذا الأسلوب، فاستعار نهجه، فصاغ قصة تأتي على النسق نفسه، هدفاً وخطواً وروحاً، إلا أن مشجبه غير مشجب صاحب الحيوان، فقد علقها على

إنسان، وصاحب الحيوان، وقصته رمزية، لم يحتج أن يقول إن ما قاله لم يحدث، وإنما هو مبتدع من عنده، أما الكاتب المتأخر، وقد جاء به على لسان إنسان وضع قصته على المحك، واستوجب الأمر التحقق مما إذا كانت القصة قد حدثت، أو أنها متخيّلة، أو أنها هدفت إلى هدف، أو أهداف، يمكن أن تستنبط من النص.

والبحث عن كتف قوية تتحمل عبء النحل أمر سهل، فما على الكاتب إلا أن يختار أعرابياً أو أعرابية، أو خليفة أو وزيراً، أو قاضياً أو أميراً، أو محدّثاً أو فقيهاً، فينحله القصة، ويطمئن إلى أنها ستُقبل، ولو من بعض المتعجلين، مثل القصة التي أوردها الجاحظ[1].

---

(١) «البيان والتبيين»، ٢/ ١٠٥٠، تحقيق حسن السندوبي، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م).

«قال أبو الحسن: أراد رجل أن يكذّب بلالاً[1]..

فقال له يوماً: يا بلال، ما سنّ فرسك؟

قال: عظم.

قال: فكيف جريه؟

قال: يحضر ما استطاع.

قال: فأين تنزل؟

قال: موضعاً أضع فيه رجلي.

قال الرجل: لا أتعنتك أبداً».

قد يكون الهدف إظهار عظمة بلال، وأنه لم يوضع في هذا المنصب المهم إلا لكفايته، ومقدرته، فهذا الرجل أراد أن يحرجه، وأن يقطع نَفَسَهُ فِي الجدل، إلا أنه وجد في الغابة أسداً، فعاد خائباً، ووعد ألا يعيد الكرّة، وقد يكون الهدف شيئاً ربما

---

(١) هو بلال بن أبي بردة، أمير البصرة وقاضيها.

يتبين بعد فحص أوفى.

أما الدليل على النحل، فهو هذا الجدل المتكلف، مع رجل غير مبتذل، فإنه حتى لو جاء من يريد أن ينزله من مقامه لا يطاوعه، ويستمر قياده في يد ذلك الهازل، وإن كان قد مانعِ اللجام وعاند، وكان بإمكان الرجل، إن كان عاقلاً، وهو ممن يجلس مع قاض أمير، أن يوقف الحديث من أول جواب، أو ثاني جواب على الأكثر.

ويبدو أن أكتاف القضاة متينة، تتحمل ما يوضع عليها بصبر جميل، مثل تعوّد القضاة الصبر، وطول البال، عادة، معٍ المتقاضين، وهذه قصة متخيلة[1] نسبت، خيالاً، إلى قاض، وهي من النحل الذي وصفناه:

«دخل رجل على شريح القاضي، يخاصم

(١) البيان والتبيين، للجاحظ، ٢/ ١٠٥٠.

امرأة له، فقال:

السلام عليكم.

قال: وعليكم.

قال: إني رجل من الشام.

قال: بعيد سحيق.

قال: وإني قدمت إلى بلدكم هذا.

قال: خير مقدم.

قال: وإني تزوجت امرأة.

فقال: بالرفاء والبنين.

قال: وإنها ولدت غلاماً.

قال: ليهنك الفارس.

قال: وقد كنت شرطت لها صداقها.

قال: الشرط أملك.

قال: وقد أردت الخروج بها إلى بلدي.

قال: الرجل أحق بأهله.

قال: فاقض بيننا.

قال: قد فعلت».

هذا الحوار مشى حذو القذة بالقذة مع قصة احتكام الضبع والثعلب إلى الضب، وسار على النهج نفسه، لم يحد عنه في القول ورده، ولم يستره مؤلفه بستار عن النص الأصل، ولم يعم عن تلك القصة، والفرق، مع هذا، مثل البُعد بين السماء والأرض، فالقصة ركبت على متحاكم وقاض، وليس هناك قضيّة البتة، ولعل صاحبها أتى بها حتى يوهم، من لا يعرف عن الأصل، أنها الأولى في ابتداع هذا الأسلوب، ولكنه لم يكن كفيئاً لما نصب نفسه له.

هذا وأرجو أن يحقق هذا الجزء غرضه، وأن يكون مقبولاً من القرّاء الكرام، ومقبولاً من الأجزاء السابقة له، فلا تجده خارجاً عن أسرتها.

واللّه الموفق، وهو المستعان..

عبدالعزيز الخويطر

***

(٣) تحيـــة للنســـاء

خلق اللّٰه الرجل، وخلق المرأة، وجعل اكتمال المجتمع بهما، وعمار الكون باقترانهما، ويسّر كل منهما لعمل قد لا يجيده الثاني، إما لامتياز جسميٍّ، أو لاختلاف بدني، أو لمجال اكتساب طبع هيئ لأحدهما ولم يُهيأ للآخر، ولكنه قرّب بينهما في أمور، منها الأمور الذهنيه، وما يأتي منها، مما قد يكون لدى أحدهما من عقل، وتدبر، وتبصر، وملكة طبعية أو مكتسبة أوفر من الآخر، وجعل أحدهما يبز الآخر عند الحاجة، وعند الاختبار، من ذلك سرعة البديهة، وحسن الجواب، وسرعته، ومنه المقدرة على تحليل الحوادث، والوصول إلى نتائج تأتي بالفائدة المطلوبة.

وجاء التعليم الآن، وأكسب المرأة ما لم تكسبه في الماضي، وزاحمت الرجل في مجالات تبين أنها فيها أقدر من الرجل، ونتائج عملها أكثر دقة، وكان من طبيعة تكوينها ما ساعدها على ذلك، ففي الطب مثلاً نعومة أناملها، ولين عاطفتها، وأناتها، أعطتها، مع حسن الاستفادة، وطول التجربة، ما شهد لها به القريب والبعيد.

وقصص النساء اللائي جئن، في وقت الشدّة، منقذات لرجالهن من «ورطة» وقعوا فيها، أو مصيبة حلّت بهم، فكانوا نعم العون، كثيرة، وكتب الأدب والتاريخ تزخر بما سُجّل من هذه الأعمال.

وسيأتي يوم، بعد أن انتشر التعليم النسائي، ووصلت فيه النساء إلى أعلى مراتب العلم، من يتصدى منهن لجمع ما دُوِّن، وإلقاء الضوء على ما كمن خلف العمل من عقل راجح، وذهن صاف،

وحسن تصرّف، وسداد خطو، ودقة تحرك، وإتقان احتيال.

وقد جاء الاعتراف بفضلهن على ألسنة خيّرين في كل العصور الحضارية التي مرت، وقد أشيد بما ظهر منهن من تميز، أمهات، وزوجات، وبنات، وأخوات، وليس من بيننا ممن سرت الحضارة الإسلامية في دمه إلا وهو يقر لأمه بالفضل الكبير، ويكن لأخته الاحترام الكامل، ويضمر لابنته الحب والعطف والحنان، ولزوجته التقدير، يشمل هذا العمّة والخالة والجدّة، والمربية، والجارة.

ولا يُنكر فضلهن إلاّ عاق، جاهل، ناقص العقل، فاسد التربيةَ، أو معقّد لا يُعد من الأسوياء.

وقد استوقفتني قصة من الماضي البعيد، كان الإشعاع فيها، أولاً وآخراً، جاء من المرأة، فراحت، لرأيها بالفضل الكبير. والقصة جذابة في سبكها،

وتغري بالالتفات إليها، فالدر كامن بين طياتها المضحكة والمبكية، لا تحتاج لاصطيادها إلى غوّاص ماهر، ولا سبّاح نادر، والقصة كما يلي:

«كان بالكوفة امرأة لها زوج، قد عُسر عليه المعاش، فقالت له: لو خرجت، فضربت في البلاد، وطلبت من فضل اللّه ـ تعالى ـ رجوتُ أن ترزق شيئاً.

فخرج إلى الشام، فكسب ثلاث مئة درهم، فاشترى بها ناقة فارهة، وركبها قاصداً الكوفة، وكانت زعرة (أي شرسة)، فأضجرته، واغتاظ منها، ومن زوجته، وإخراجه، وتقطيعه بأسفاره، فبدر لسانه فيها بأن حلف بطلاق امرأته أنه يبيعها، يوم يدخل الكوفة، بدرهم!!.

وسكن من حرده، فندم أشد ندامة، واغتمّ أعظم غمّ، وقدم الكوفة.

فقالت له زوجته: أي شيء جئت به معك؟ ورأته مغتماً.

قال: لا شيء؟

فقالت له: فهذه الناقة لمن؟

قال: لا أدري لمن تحصل له، وحدّثها بحديثه، وما جنى عليه حرِدِهِ، وجرَّ لسانُه.

فقالت له: أحتال لك حتى لا تحنث، ولا تخيب، وعمدت إلى سنّور (قطة)، فأخذتها، وعلّقتها في عنق الناقة، وقالت:

أدخلها السوق، وناد عليه: من يشتري هذه السنور بثلاث مئة درهم، والناقةَ بدرهم واحد، ولا أفرّق بينهما؟

فدخل السوق، وفعل ذلك، فجاء أعرابي يدور حول الناقة، وجعل يقول:

ما أسمنك..! ما أفرهك..! ما أحسنك..! ما

أرخصك..! لولا هذا المشارك في عنقك.

[الهفوات النادرة ص: ٥٨][1].

ولابد أن الناقة بيعت، وأطلق سراح القطة، وبقي الفضل لله ثم لهذه المرأة الذكية، التي تغلبت على النقص في عقل زوجها. ومن عمله وعملها، يبدو أنه ليس أهلاً لها، فهو عاطل كدّ، وهي التي دفعته إلى أن يحتال لرزقه، ثم كسب نتيجة نصحها، ولكنه تصرف بغباء، فاشترى ناقة شرسة مشاكسة، ولم يستشر أهل المهنة، والعارفين بالصنف.

ثم عند أول مشكلة يحلها على حساب زوجته، أو ضياع ماله، فيسارع إلى الحلف بالطلاق، ولولا أن المرأة عاقل، لحَدَّته إلى أن يسير فِي أمر الطلاق، ولم تحتل على بيع الناقة، وأثبتت خرَقه، وعدم نفعه زوجاً، وطلبت الطلاق منه.

---

(١) دار الشريف للنشر والتوزيع ـ الرياض، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

ولم يخرجه من هذه الحفرة، التي أوقع نفسه فيها، إلا امرأته، فكان هو طوال الوقت مثل كيس الخيش الفارغ مادامت ممسكة به، رافعة له، فهو مستو على سوقه، فإذا تركته سقط على الأرض كومة لا خير فيه.

لاشك أن ميزانها رجح على ميزانه، ونالت قصب السبق، ومنتهى الحمد.

كان الكتّاب في الماضي رجالاً، فكانوا يهتمون بأمور الرجال، وإذا كان هناك أديبات فإنهن لم يتصدين للكتابة، ولعل هذا راجع إلى انشغال المرأة ببيتها وأطفالها، وأسباب العيش أحياناً، ولو كان هناك مشاركات في الكتابة، لرأينا لهن اهتماماً ببنات جنسهن، لأن هناك بصيص نور يضيء متسللاً بين صفحات ما يقال في مؤلفات الأدباء والكتاب، فقد تأتي قصة عن شجاعة امرأة، أو مروءتها، مما سار

به الركبان، أو عن كرمها، أو ما إلى ذلك من الأعمال الحميدة، التي كانت مجالاً للكتابة بإسهاب عن الرجال الذين اتصفوا بها.

وأمامي الآن قصة مناسبة، رواها صاحب كتاب: «المختار من نوادر الأخبار»، للمقري (ص ١٠)[١]:

«كانت خالة حاتم الطائي سخيّة، لا تترك شيئاً إلا جادت به، فحظر عليها إخوتها، حتى ذاقت طعم الفقر والجوع، فظنوا أنها وَجَدت ألم الضيق، فأطلقوها، ودفعوا لها صرمة (قطعة ما بين عشرين إلى ثلاثين)[٢] من الإبل، فأتتها سائلة، فقالت:

دونك الصرمة، لقد عضّني الجوع، فلا أمنع بعدها سائلاً أبداً».

وهكذا يتبين، إذا صحت هذه القصة، أن الجود

(١) شمس الدين محمد بن أحمد المقري الأنباري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٢) وقيل إن القطعة ما بين عشرين إلى خمسين.

في هذه الأسرة، وأنه يجري في دمها، وأن لذّة الإنفاق تفوق لذة الحيازة، وكنت أحياناً أشك فيما يكتب عن حاتم الطائي، حتى رأيت فعل «أبو سليمان» محمد الحمد الشبيلي، فقبلت كل ما يقال عن حاتم ذلك الزمن بعد أن رأيت حاتم هذا الزمن، وحاتم زمننا هذا يذهب يبحث عن الناس، ولا ينتظر حتى يأتوه.

وهناك موقف امرأة أمام رسول اللّه ﷺ وقد قالت قولاً معجبا، ولأنه حديث عن رسول اللّه ﷺ يبقى الجزم بصحته مطلوب من علماء الحديث، ومع هذا، وبصرف النظر عن صحته فإن ما جاء به من قول سديد، ورأي منير، وإحاطة بالأمر يستحق أن يذكر، ولم يذكر على لسان امرأة إلا لأنه لائق بها أن تفكر هذا التفكير، وأن تقول هذا القول، أو لعلّ من حبّر هذا توقّع مثل هذا، والقصة وردت في

كتاب: «المختار من نوادر الأخبار ص: ٨٨):

«وفدت أسماء بنت يزيد (الأشهلية الأنصارية، محدثة فاضلة، شهدت اليرموك، وروت أكثر من ثمانين حديثاً عن الرسول ﷺ) على النبي ﷺ، فقالت:

بأبي أنت وأمي، يا رسول اللّه، إنه ليس في شرق البلاد وغربها امرأة إلا وهي مثل رأيي: إن اللّه ـ تعالى ـ بعثك إلى الرجال والنساء، فآمنا بك، وبإلهك الذي بعثك.

وإنّا معشر النساء محصورات مقصورات، قوّامات بيوتكم، وحاملات أولادكم، وحافظات أموالكم، وخوالفكم في سفركم، وممرضات في الحضر، وإنكم يا معشر الرجال، فُضّلتم علينا بالجُمَع والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز والحج والعُمرة، وأفضل من ذلك كله الجهاد في سبيل اللّه،

وإنكم إذا خرجتم حجاجاً ومجاهدين، وتجاراً ومسافرين، حفظنا لكم أموالكم، وربينا لكم أولادكم، ثم غزلنا لكم الأثواب، وجمعنا لكم الطعام.

أفنشارككم في الأجر، يا رسول اللّه؟

فأقبل النبي ﷺ علي أصحابه، وقال لهم:

هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مقالتها، في حسن مساءلتها عن أمر دينها؟

ثم أقبل عليها فقال:

ارجعي، أيتها المرأة، فأخبري من وراءك من النساء أن حسن تبعُّل إحداكن لزوجها، واجتنابها سُخْطَه، واتباعها مرضاته، يعدل ذلك كله.

فولّت المرأة تكبِّر وتهلل استبشاراً».

وهناك في كتاب: «المختار من نوادر الأخبار ص ٩٥» قصة جميلة، ولا أشك أنها منحولة، وأن الكاتب الذي كتبها، والأديب الذي زوّقها، سبح في الخيال

حتى جاء بها في هذه الصورة، ولعل القصد لِمَزُ مروان بن الحكم، ومعه حُكم معاوية والأمويين.

إلا إني أوردها لأنها في صف المرأة، وما قد يأتي منها من نبل يصغر بجانبه نبل بعض الرجال، ولأنها تكشف عن الفكر في ذلك الزمن، وما يدور فيه، وما يقبله، أو يتوقع أنه يقبله، ولقد أجاد الكاتب في ترتيب خطوات هذه المسرحية، وسوف تقنع أناساً كثيرين، عندما يقرؤونها، بأنها حقيقة واقعة، دون توقف منهم وتبصر أمام نقط الضعف، وأهمها الآفة الكبرى في النحت في ذلك الزمن، وهي الصدفة، فقد كان اليوم شديد الحر، والأعرابي في شدة منه، وصادف مجيؤه أن معاوية نفسه كان يطلب نسمة هواء، فصادف جلوسه رؤية الرجل، ثم تَدْرج القصة رخاء كسفينة في بحر هادئ، لا يعوقها عائق عن الوصول إلى ما كان فيً ذهن الكاتب من حسن الظن

في نبل عاطفة المرأة، وتفضيلها زوجها الذي أكلت معه الحلو فلم تنسه، فكان لها من ذلك ما جعلها تتحمل راضية المرّ، ولم يُضِعْ اللّه أجرها، بحسن نيتها، ووفائها، فعوضها خيراً، عوّضها حبيبها، ومعه مال لها وله، جزيل واف.

ولو تأكدنا من صحة الحادثة لقلنا أنها أصابت الهدف برفضها معاوية، لأن معاوية قد لا تطول مدتها معه، فإذا صوّح نبتها، وكسف بدر جمالها، وذوى شبابها، رُميت رمي النواة، أما مع زوجها فقد ضمنت أن اليد التي أسدتها له لن تذهب مع الرياح، وهذه هي القصة الممتعة:

«قيل: جلس معاوية بن أبي سفيان بمجلس كان له بدمشق، وكان ذلك الموضع مفتّح الجوانب، يدخل منه النسيم، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات، وكان يوماً شديد الحر، لا نسيم فيه، وكان

وسط النهار، إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه، وهو يتلظى من حرّ التراب، ويحجل في مشيه حافياً، فتأمله معاوية، وقال لجلسائه:

هل خلق اللّه أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في مثل هذه الساعة؟

فقال بعضهم: لعله يقصد أمير المؤمنين.

فقال: واللّه، إن كان هو قاصدي لأعطينّه، أو مستجيراً لأجيرنّه، أو مظلوماً لأنصرنه، يا غلام، قف بالباب، فإن طلبني هذا الأعرابي، فلا تمنعه الدخول.

فخرج الغلام، فوافى الأعرابي، فقال:

ما تريد؟

قال: أمير المؤمنين.

قال: ادخل.

فدخل وسلّم على معاوية.

فقال: ممن الرجل؟

فقال: من تميم.

قال: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟

قال: جئت إليك شاكياً، وبك مستجيراً.

قال: ممن؟

قال: من عاملك، مروان بن الحكم، وأنشد:

معاويَ، يا ذا الجود والحل والفضل
ويا ذا الندى والعلم والرشد والبذل
أتيتك لما ضاق في الأرضِ مذهبي
فيا غوثُ، لا تقطع رجائي من العدل
وجد لي بإنصاف من الجائر الذي
بلاني بشيء كان أيسره قتلي
سبانيَ (سُعدَى)، وانبرى لخصومتي
وجار، ولم يعدل، وغاصبني أهلي
وهمّ بقتلي غير أن منيَّتي
تأنّت، ولم أستكمل الرزق من أجلي

فلما سمع معاوية إنشاده، والنار تتوقد فيه قال: مهلاً، يا أخا العرب، اذكر قصتك، وأفصح عن أمرك.

فقال: يا أمير المؤمنين، كانت لي زوجة، وهي ابنة عمّي، وكنت لها محبّاً، وبها كلفاً، وكنت بها قرير العين، طيب العيش، وكان لي صرمة (قطعة) من الإبل، استعين بها على قيام حالي، وكفاف أودي، فأصابتني سنة (عام مجدب) ذات حطمة شديدة، أذهبت الخف والظلف، وبقيت لا أملك شيئاً.

فلما قلّ ما بيدي، وذهب مالي، وفسد حالي، صرت مهانا، ثقيلا على وجه الأرض، قد أبعدني من كان يشتهي القرب مني، وأزورّ عنّي من كان يرغب في زيارتي.

فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال، وشرِّ المآل، أخذها مني، وجحدني، وطردني، وأغلظ

عليَّ، فأتيت إلى عاملك: مروان بن الحكم، مستصرخاً به، راجيا نصرته، فأحضر أباها، وسأله عن حالي.

فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها، فليفعل.

فبعث إليها مروان، وأحضرها مجلسه، فلما وقفت بين يديه، وقعت منه موقع الإعجاب، فصار لي خصماً، وعليَّ منكراً، فانتهرني، وأظهر لي الغضب، وبعث بي إلى السجن.

فبقيت كأنما خررت من السماء إلى مكان سحيق، ثم قال لأبيها:

هل لك أن تزوجنيها على ألف دينار لها، وعشرة آلاف درهم لك، وأنا ضامن لك خلاصها من الأعرابي.

فرغب أبوها في البذل، وأجابه إلى ذلك.

فلما كان من الغد، بعث إليَّ، وأخرجني من

السجن، وأوقفني بين يديه، ونظر إليَّ كالأسد الغضبان.

وقال: يا أعرابي، طلّق «سعدى».

قلت: لا أطلقها.

فسلّط عليّ جماعة من غلمانه، فأخذوا يعذبونني بأنواع العذاب، فلم أجد بدّاً من ذلك، ففعلت، ثم أعادني إلى السجن، فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها، فتزوجها، ودخل بها، وأطلقني بعد ذلك.

وقد أتيتك راجياً، وبك مستجيراً، وأنشد:

في القلب مني نار ... والنار فيها استعار

والجسم مني سقيم ... فيه الطبيب يحار

وفي فؤادي جمر ... والجمر فيه شرار

والعين تهطل دمعا ... فدمعها مدرار

وليس إلا بربي ... وبالأمير انتصار

فاضطرب، وخرّ مغشيّاً عليه، وصار يتلوى

كالحيّة المقتولة.

فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده، قال:

تعدّى، وظلم ابن أبي الحكم في حدود الدين، واجترأ على حُرَم المسلمين، ثم قال:

والله، يا أعرابي، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله، ثم دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى مروان ابن الحكم:

«قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك، وانتهكت حرمةً من حُرَم المسلمين، وتعدّيت في حدود الدين، وينبغي لمن يكون والياً أن يغضّ بصره عن شهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته».

ثم كتب إليه، بعد، كلاماً اختصره الراوي يقول فيه:

وُلِّيت ويحك أمراً لست تدركه
فاستغفرُ الله من فعل امرئ زانِ

وقد أتانا الفتى المسكين منتحبا
يشكو إلينا ببَثّ ثم أحزان
أُعطي الإله يميناً لا أكفّرها
نعم، وأبرأ من ديني وديّاني
إن خالفتني فيما كتبت به
لأجعلنَّك لحماً بين عقبانِ
طلِّق «سعاد» وجهِّزها معجلة
مع «الكميت» ومع «نضر بن ذيبان»

ثم طوى الكتاب، وطبعه بخاتمه، واستدعى الكميت، ونضر بن ذيبان، وكان يستنهضهما في الحوائج لأمانتهما.

قال: فأخذاه، وسارا حتى قدما المدينة، فدخلا على مروان بن الحكم، فسلما إليه الكتاب، وأعلماه بصورة الأمر، فجعل مروان يقرؤه ويبكي، وقام إلى سُعدى، فطلقها بحضرة الكميت ونضر بن

ذيبان، وجهزها إليه مع الرسولين المذكورين، وكتب مروان كتاباً، اختصر المؤلف منه فصلاً، قال فيه:

لا تعجلنّ أمير المؤمنين فقد
أوفى بنذرك في رفق وإحسان
وما أتيت حراماً حين أعجبني
فكيف أدعى باسم الخائن الزاني؟
أعذر، فإنك لو أبصرتها لجرت
منك الأماني على تمثال إنسان
فسوف تأتيك شمس ليس يعدلها
عند الخليفة من إنس ومن جان

ويقول مؤلفها أو ناقلها أنه بقيٍ من هذه القصيدة أبيات أعرض عن ذكرها.

وختم الكتاب، ودفعه إلى الرسولين، وسلمهما الجارية، وسارا حتى وصلا إلى أمير المؤمنين، فسلما إليه كتاب مروان، فقرأه معاوية، فقال:

أحسن في الطاعة، وأطنب في ذِكر الجارية، وحسنها، ثم طلب الجارية، فلما رآها دُهش لحسنها وجمالها، عجب من هيئتها، وقدّها، واعتدالها، فخاطبها، فوجدها أفصح النساء، بعذوبة منطق، فقال: عليَّ بالأعرابي.

فأتى إليه، وهو في غاية من سوء الحال.

فقال: يا أعرابي، هل لك عن سعدى من سلوة، وأنا أعوّضك عنها ثلاث جوار أبكار، مع كل واحدة ألف دينار، وقسم لك من بيتً المال ما يكفيك في كل سنة، ويعينك على صحبتهن؟

فلما سمع الأعرابي كلام معاوية، شهق شهقة، ظن معاوية أنه قد مات.

فقال له معاوية: ما بالك؟

قال: شرّ بال، وأسوأ حال، استجرت بعدلك من جور «ابن الحكم»، فبمن استجير من جورك،

وأنشد:

لا تجعلنّي فَداك اللّهُ من ملك
كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاد على حيران مكتئب
يمسي ويصبح في همّ وتذكار
أطلق وثاقي ولا تبخل عليّ بها
فإن فعلتَ، فإني غير كفّار

ثم قال: والله، يا أمير المؤمنين، لو أعطيتني ما حوته الخلافة، ما اعتضته دون سُعدَى، وأنشد:

أَبَى القلب إلا حب «سُعدَى» وبُغِّضت
إليَّ نساء ما لهن ذنوب

فقال معاوية: يا أعرابي، أنت مُقرّ أنك طلَّقتها، ومروان أقرَّ أنه طلَّقها، ونحن نخيِّرها، فإن اختارت سواك، زوَّجناها منه، وإن اختارتك رجعناها إليك.

قال: إفعل، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ

العظيم.

فقال لها معاوية: ما تقولين، يا سعدى؟ أينا أحبُّ إليك: أمير المؤمنين، في عزِّه وشرفه، وسلطانه وقصوره، وما تصيرين عنده، أو مروان بن الحكم في عسفه وجوره، أو هذا الأعرابي، في جوعه وفقره، وسوء حاله؟

فأنشدت:

«هذا» وإن كان ذا جوع وإضرار
أعزّ عنديَ من قومي ومن جاري
وصاحبِ التَّاج أو مروانَ عامله
وكلِّ ذي درهم عندي ودينار

ثم قالت: واللّه يا أمير المؤمنين، ما أنا بخاذلته من أجل حادثة الزمان، ولا لغدرات الأيام، وإنَّ لي معه صحبة قديمة لا تُنسى، ومحبَّة لا تَبلى، وأنا أحق من صبر معه على الضَّراء، كما تنعَّمت معه في السراء.

فتعجَّب معاوية من عقلها ومروءتها، وأمر لها بعشرة آلاف درهم، وكسوة، وللأعرابي بمثل ذلك، وردّها بعقد صحيح».

هذه هي القصة، وفيها كلف فضح الأديب الذي أنشأها، وأمّل أن تقبل على أنها حدثت، وأظهر كلف فيها هذا الشعر المفتعل، ليتماشى مع القصة، ولو بقي بين المرأة وزوجها لقُبل، أما أن يؤتى به على لسان معاوية أو مروان فغير مقبول، ويُذكّر بما ورد في كتاب «إعلام الناس».

والكلف الثاني بكاء مروان، فلماذا يبكي، وممَّ؟ وقد أقدم على فعلته مختاراً، ألم يعلم أن فعله مخالف للدين، لينتظر من معاوية أن يذكّره به؟!

وحسن الرد، وسرعة البديهة، من الفضائل التي تميز شخصاً عن آخر، وهذه أم الفضل بن سهل، رغم ما هي فيه من حزن، لم تذهل عن حسن المنطق،

وسرعة الرد، وإصابة بديهتها مرماها، والقصة قصيرة، ولكنها مضيئة، ووردت في: «المختار من نوادر الأخبار ص: ١١٣»:

«دخل المأمون على أم الفضل بن سهل، وقد مات ولدها الفضل، وهي تبكي بكاءً شديداً، فقال: مه، يا أم الفضل، أما ترضين أن أكون لك عوضاً عن ابنك؟.

قالت: أفلا أبكي على ابن أكسبني مثلك؟

وندلف إلى قصة إن كانت حدثت فللّه در قائلتها، لقد أحسنت القول، وأخذت بمجامع الحكمة، ودلت أنها استفادت من تجارب الحياة، ولديها عصارة صافية منها، سكبتها بين يدي ابنتها، وإن تكن مؤلفة فللّه درّ من ألَّفها، لقد أتقن الخيال، وأحسن القول، وتحدَّث عن بصيرة، وقال عن تدبُّر، وجمع أطراف الكلم، فلا حَادَ من نصيحة، تنصح بها

العروس، قيد شعرة، ولا قصرَّ قيد أنملة، لو أخذت كل عروس بهذه النصيحة لسعدت في حياتها الزوجية، بإذن اللّه تعالى.

إن هذه النصيحة، بصرف النظر عن قائلها، أو مؤلفها، تكشف جانباً من تفكير المرأة العاقل المجربة في ذلك الزمن، وما يطلبه الزوج من زوجته، وما يتطلع إليه المجتمع، وما هو مقياس السعادة الزوجية ومتطلباتها، تحدثت عن انتقال المرأة من بيت أهلها إلى بيت زوجها، وما يتطلب هذا الانتقال، في ضوء ما اعتادت عليه في بيت أهلها، وما يجب أن تعتاد عليه في البيت الجديد.

نصحتها فيما يجب أن تتخذه في بيتها مما يحبب إلى عملها، وما يحبب إليها مما يُنظر إليه منها، وما يجب أن تتزين به، وأجمل أدوات الزينة، وما يجب تجاه الأولاد وتربيتهم، وعن الطعام، وما يجب أن

يكون عليه، وتحدثت عن موجبات السعادة، ومنفرات الهناء، فحثَّت على الأولى، وحذَّرت من الثانية، مع ذكر الأسباب، وإعطاء الحجج القوية، بثقة وعزيمة.

ويقال إن الابنة أخذت بنصيحة أمها، وكانت النتيجة سعادةً ما بعدها سعادة كما أشارت القصة في نهايتها.

والقصة وردت في عدة كتب منها كتاب «المختار من نوادر الأخبار، ص: ١٢٤»:

«لما تزوج الحارث بن عوف الكندي بالخنساء بنت ملحم، وكانت ذات جمال فائق، فلما زفّت إليه، أوصتها أمها، وقالت لها:

أي بُنَيَّة، إن الوصيّة لو تركت لفضل أدب، أو جودة حسب، لتركتها عنك، لما أعلم من حسن أدبك، وفضل حسبك، وجودة عقلك، ولو استغنت النساء عن الرجال، لكنتُ أنا أغنى النساء، ولكنهن خُلقن

للرجال، كما أن الرجال خلقوا لهن.

إنك قد خرجت من العش الذي فيه درجت، ومن البيت الذي فيه نشأت، إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أَمَة، يكن لك عبداً، واحفظي خصالاً عني، لتبلغي بها أمراً، وتنشري بها ذكراً.

يا بُنَيَّة، عليك بحسن الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بالسمع والطاعة، فإن في القناعة راحة القلب، وفي السمع والطاعة رضى الزوج، وطاعة الربّ، والزمي التفقد لموضع عينه وأنفه، واحذري أن تقع عينه منك على قبيح، وأن لا يشم منك إلا طيّب الريح.

واعلمي، يا بُنَيَّة، أن الكحل هو الحسن الموجود، والماء هو أطيب الطيب المفقود.

واحرصي على الرعاية لعياله، والحفظ لماله، فإن في رعاية عياله حسن التدبير، وفي حفظ ماله

حسن التقدير.

والزمي التفقد لطعامه، والهدوّ وقت منامه، فإن حرارة الجوع مَلْهَبَة، وتنغُّص النوم مشقَّة متعبة، ولا تفشين له سرّاً، ولا تعصين له أمراً، فإنك إن أفشيت سرَّه، لا تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغلت عليك صدره.

ولا تظهري فرحاً إن كان تَرحاً، ولا اكتئاباً إذا كان فَرحاً، وكلما زدته إعظاماً، زادك إكراماً، وآثري هواه على هواك في أكثر الأوقات، تفوزي منه بالمَنح والهبات».

ثَم إنها زَفّت إليه، وحظيت عنده، وولدت منه أربعة ملوك، وهم: «ترحيل»، و «حُجر»، و «مسلمة»، و «معدي كرب».

ونظرة ثاقبة من امرأة بصيرة رأت ما لم يره زوجها، فنبهته إلى ما لم يتنبه له، وإن كان يشوب

القصة من الشك ما يشوب أغلب القصص التي يكون محورها الحجاج، ودون أن نؤكد صحتها بأدلة نستخرجها منها، أو نحلها بما قد تخبؤه من حقائق كامنة فيها، نقبلها على أنها نتاج فكر، ودور وجد أن المرأة في ذلك الزمن قمينة أن تقوم به، ثقة في عقلها، وما عرف عن سيدات ذلك الزمن، والقصة من كتاب: «المختار من نوادر الأخبار، ص: ١٢٥»، وهي قصة ممتعة، حبكت سيورها بيد صناع، إن لم يكن مفتعلها، فهو ناظمها، بعد سماع حديث مجالس، ومعروف دَرْجُ مثل هذه الأحاديث:

«لما قدم الحجاج بن يوسف الثقفي على الوليد بن عبدالملك، وهو يومئذ خليفة، فوجده قد دفن ابنه، وهو في المقابر، وكان على الحجاج يومئذ درع وكنانة، وهو متقلد بقوس عربي، فعمد إلى قبر عبدالملك بن مروان، وسلّم عليه، وصلى

ركعتين، ولما ركب الوليد مشى الحجاج بين يديه، فقال له الوليد:

أركب، يا أبا محمد.

فقال: يا أمير المؤمنين، دعني استكثر من المشي، فإن ابن الزبير وابن الأشعث طالما شغلاني عنه، وكان قد قتلهما.

ثم ألح عليه، فركب معه.

ودخل الوليد إلى قصره، فتخفف إلا من غلالة، ثم أذن للحجاج، فدخل، وأجلسه معه، وخلا به، وطال حديثه معه، فخرجت جارية من وراء الستر، وأشارت للوليد، فقال للحجاج:

أتدري، يا أبا محمد، ما قالت هذه الجارية؟

فقال: لا.

فقال: إن أم البنين (بنت عبدالعزيز بن مروان)، ابنة عمي، بعثت لي تقول:

ما مجالستك مع هذا الأعرابي المشتمل في سلاحه، وأنت في غلالة.

فأخبرتها أنك الحجاج، فراعها ذلك، وقالت: والله ما أحب أن يخلو معك، وقد قتل خلقاً كثيراً.

فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء، يزخرفن القول، إنما المرأة ريحانة، وليست قهرمانة، فلا تُطْعهنَّ في غير ذلك، فيوهنّك، ولا تشتغل بغير زينتهن، فإن رأيهن إلى أفن، ولا تملّك المرأة من الأمور ما يجاوزها نفسها، ولا تطمعها أن تشفع في غيرها أبدا، ولا تطل الخلوة معهن، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبرز لفضلك.

ثم خرج من عنده، ودخل الوليد على أم البنين، زوجته، وأخبرها بمقالة الحجاج إلى آخرها.

فقالت له: يا أمير المؤمنين، إني أريد منك، لما

يأتيك في غد، تأمره بالدخول عليَّ.

فقال: نعم.

فلما جاء الحجاج إلى الوليد، قال له:

يا أبا محمد، اذهب إلى «أم البنين»، فسلِّم عليها، واقْض من حقِّها ما يجب.

فقال: يا أمير المؤمنين، اعفني من ذلك.

قال: لابدّ منه.

فنهض الحجاج، وتجاوز الستر، فحجب على الباب طويلا، ثم أذن له، فدخلٍ إليها، فلم يؤذن له في الجلوس، فبقي واقفا طويلاً.

فقالت له: يا حجاج، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وعبدالرحمن بن الأشعث، فواللّه، لولا أنك أهون على اللّه من سائر خلقه ما ابتلاك برمي حجارة الكعبة، وبقتل ابن الزبير، وهو أول مولود في الإسلام (الصحيح أنه أول مولود

ولد في المدينة المنورة بعد الهجرة)، وأما ابن الأشعث، فوالله، لقد والى عليك الهزائم، حتى ضجرت، ولولا أن أمير المؤمنين، عبدالملك بن مروان نادى في الشام، وأنت في أضيق من قراب، من جند ابن الأشعث، وقد أظلّتك رماحهم، وفاجأك كفاحهم، ما قويت عليه، ولا أقمت لحربه.

وأما ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذّاته، والامتناع من تفرغ أوطاره، ومن نسائه، فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت أمك، فما أحقَّه بالأخذ عنك، والقبول منك، وإن كن ينفرجن عن مثل أمير المومنين، فإنه غير قابل لقولك، ولا مصغ لمشورتك.

أخرجوه عني، قاتله اللّه.

قال: فدفع، وخرج، فمرَّ على أمير المؤمنين، الوليد، فقال له:

يا أمير المؤمنين، ألم أسألك أن تَعْفيني من الدخول عليها؟!

قال: فماذا قالت؟

قال: واللّه، إنها وبختني، ولم تسكت عني، حتى تمنيت أن الأرض تبتلعني».

قصة جميلة، أوضحت بجلاء رأي الفئة، التي لا تُكنْ حبّاً أو احتراماً للحجاج، صيغت بطريقة تُلزم قبولها، وما اختيار «أم البنين»، لتلعب الدور الذي يكون الوسيلة الواضحة المقنعة، إلا لأنه لابد أنه عرف أن مثل هذا يأتي منها.

أما خوفها على زوجها الأعزل من أعرابي جلف، متدرع بأحد أنواع الأسلحة المعروفة حينئذ، وهو من هو فيما يقال من سهولة استحلاله القتل، فأمر لا يستغرب من زوجة تحب زوجها، وهي في مقامها خير من يتنبَّه لمثل هذا.

ولكن يبقى أمر مهم: من هو الذي كان حاضراً وسجل هذا الحدث بتفاصيله، إن انسقنا مع الحدث، قلنا أن الرواية جاءت من الجواري، ودارت في المجتمع، وصاغها الأديب، لتتناسب مع ما قيل، وإن لم يكن الأمر كذلك، فقد شفى أحد أعداء الحجاج غليله، ونام قرير العين في أن كثيراً من الناس، على مر العصور، سوف يقبلونها.

والمرأة تَعُدّ الزوجية مملكة لها، ولا تسمح لأحد ـ إذا قدرت ـ أن يدخل حدودها، فهي تحمي هذه الحدود بكل ما لديها من أسلحة، وتحتال لذلك بكل الحيل، وتبقى يقظة تتسمع لأي نبرة صوت، أو حركة فعل، فتأتي بقضها وقضيضها، ولا تترك وسيلة إلا اتخذتها، والغاية عندها في هذا تبرر الوسيلة، ومثلما تعرَّض الحجاج لنقمة أم البنين تعرض آخر لنقمة «أم سلمة»، بما هو أشد

وأنكى، ولكن هذا يستحق ما جاءه وأكثر، وهو خالد بن صفوان الذي التقط مختاراً حيَّة، وجعلها في حجره، مشى إلى الشرّ بقدميه، يسبقه نيَّة سيئة، ملأى بالنفاق، فانقلبت نيته نقمة عليه، وهي قصة طريفة، تُري كيف تسير الأفكار في الأذهان إذا دخلت مثل هذا الحيِّز من التفكير، والقصة واردة في كتاب «الجليس الصالح الكافي، والأنيس الناصح الشافي، الجزء الثاني، ص: ٤٥٦، تأليف: أبي الفرج الجريري»[1]:

«دخل خالد بن صفوان التميمي على أبي العباس [السفاح] وليس عنده أحد، فقال:

يا أمير المؤمنين، إني واللّه، مازلت منذ قلَّدك اللّه ـ تعالى ـ خلافة المسلمين، إلا وأنا أحبُّ أن أصير إلي مثل هذا الموقف في الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفرغ، فعل.

(١) تحقيق الدكتور إحسان عباس، عالم الكتب ـ بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

قال: فأمر الحاجب بذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك، وأَجَلْتُ الفكر فيك، فلم أر أحداً له مثل قدرك، ولا أقل استمتاعاً بالنساء منك، ولا أضيق فيهن عيشاً، إنك ملّكت نفسك امرأة من نساء العالمين، واقتصرت عليها، فإن مَرِضَتْ مَرِضْتَ، وإن غابت غبت، وإن عَرِكَتْ [حاضت] عَرِكتَ، وحرمت نفسك، يا أمير المؤمنين، التلذذ باستطراف الجواري، وبمعرفة اختلاف أحوالهن، والتلذذ بما يُشتَهى منهن.

إن منهن، يا أمير المؤمنين الطويلة التي تُشتهى لجسمها، والبيضاء، التي تُحب لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء، ومولدات المدينة، والطائف، واليمامة، ذوات الألسن العذبة، والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك، وما يُشتهى من نظافتهن، وحُسن هندامهن.

وتخلل بلسانه، فأطنب في صفات ضروب الجواري، وشوّقه إليهن.

فلما فرغ خالد، قال: ويحك! ما سلك مسامعي، واللّه، كلام قطّ أحسن من هذا، فأعد عليّ كلامك، فقد وقع مني موقعا.

فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأه، ثم قال: انصرف.

وبقي أبو العباس مفكراً فيما سمع من خالد، يُقسِّم أمره، فبينما هو يفكر، دخلت عليه «أم سلمة»، وقد كان أبو العباس حَلَفَ أن لا يتخذ عليها، ووفى لها، فلما رأته مفكراً، قالت له:

إني لأنكرك، يا أمير المومنين، فهل حدث أمر تكرهه، أو أتاك خبر ارتعت له؟

فقال: لا، والحمد للّه!

ثم لم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد.

قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟

فقال لها: ينصحني، وتشتمينه!؟

فخرجت إلى مواليها من البُخارية، فأمرتهم بضرب خالد.

قال خالد: فخرجت إلى الدار مسروراً بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، ولم أشك في الصلة، فبينما أنا مع الصحابة واقفاً، إذا أقبلت البُخارية تسأل عني، فحققت الجائزة والصلة، فقلت لهم: هاأنذا.

فاستبق إليَّ أحدهم بخشبة، فلما أهوى إليَّ، غمزت برذوني، ولحقني، فضرب كفله، وتنادى إليَّ الباقون، وغمزت البرذون، فأسرعِ، ثم راكضتهم، ففُتُّهم، واختفيت في منزلي أياماً، ووقع في قلبي أني أُتيت من قبل أم سلمة، فطلبني أبو العباس، فلم يجدني، فلم أشعر إلا بقوم قد هجموا عليَّ،

فقالوا:

أجب أمير المؤمنين.

فسبق إلى قلبي أنه الموت، فقلت:

إنّا للّه، وإنّا إليه راجعون، لم أرَ دَمَ شيخ أضيع.

فركبت إلى دار أمير المؤمنين، ثم لم ألبث أن أذن لي، فأصبته خالياً، فرجع إليَّ عقلي، ونظرت في المجلس، ببيت عليه ستور رقاق.

فقال: يا خالد، لم أرك.

قلت: كنت عليلاً.

قال: ويحك! إنك وصفْتَ لأمير المؤمنين في آخر دخلة عليَّ من أمور النساء والجواري صفةً لم يخرق مسامعي قطّ كلامٍ أحسن منه، فأعده عليَّ.

قال: وسمعت حسّاً خلف الستر.

فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب إنما اشتقّت اسم الضرتين من الضر، وأن

أحداً لم يكن عنده من النساء أكثر من واحدة إلا كان في ضرّ وتنغيص.

قال له أبو العباس: لم يكن هذا في الحديث.

قلت: بلى، واللّه يا أمير المؤمنين.

قال: فأنسيت إذاً، فأتمَّ الحديث.

قلت: وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر، يغلي عليهن.

قال: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنتُ سمعتُ هذا منك، ولا مرّ في حديثك.

قلت: وأخبرتك أن الأربع من النساء شرٌّ مجموع لصاحبهن، يُشَيِّبنَه، ويهرمنَّه، ويُحقرنَّه، ويُقسمنه.

قال: لا واللّه ما سمعت هذا منك، ولا من غيرك.

قلت: بلى، واللّه.

قال: أفتكذبني؟

قلت: أفتقتلني! نعم واللّه، يا أمير المؤمنين، وأخبرتك أن أبكار الإماء رجال، إلا أنهن ليست لهن خُصى.

قال خالد: فسمعت ضحكا من خلف الستر.

ثم قلت: نعم، وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش، وأنَّك تطمح بعينيك إلى النساء والجوارى؟!

قال: فقيل لي من وراء الستر:

صدقت، واللّه، يا عمّاه، بهذا حدثته، ولكنه غيّر حديثك، ونطق عن لسانك.

فقال أبو العباس: ما لك؟ قاتلك اللّه؟! وفعل بك وفعل.

قال: وانسللت.

قال: فبعثت إليَّ أم سلمة بعشرة آلاف درهم، وبرذون، وتخت».

وهكذا نجحت أم سلمة أن ترد عدواً خطيراً، حاول أن يتسلل إلى حمى مملكتها بسلاح مقنع مخيف، ولكنها أجهزت عليه بما هو أقوى، ثم أبرمت معه عقداً، لم يُتفاوض عليه، ختم بختم لا يمكن أن يُفضّ، أوله ضربة خشبة، وآخره مبلغ مُجز من المال، فُرضَ الإثنان فرضاً على خالد.

وأخذ خالد بن منصور درساً قاسياً في وجوب الابتعاد عن عش الدبابير، فقد أدرك أنه لن يجد فيه عسلاً.

حتى القصص القصيرة، العفوية، المتناثرة هنا وهناك، ترجح فيها كفة المرأة على الرجل، وهي تشبه بعض الطرائف الحديثة التي تُساق عن «المعاكسات» في الشوارع، والقصة واردة في كتاب: «المختار من نوادر الأخبار، ص: ١٢٧»:

«وقال بعضهم:

كان رجل أشيب اللحية، يسترها إذا رأى امرأة، فرأى امرأة تمشي، وهي ذات حُسن وجمال، فقال لها:

إن كنت عَزبة، فأنا أتزوج بك، وأدفع لك ما تختارين، وإن كنت متزوجة، فبارك اللّه لك فيه.

فقالت له: إعلم، يا هذا أن ليس لي زوج، وإنما في رأسي يسير بياض، وأظنك تكره ذلك.

فقال: نعم.

وتركها، ومضى.

فقالت له: على رسلك، واللّه ما بلغت من العمر عشرين سنة، ولا برأسي بياض، وإنما أعلمتك أني أكره منك ما تكرهه مني».

وهكذا غلبت هذه المرأة هذا الرجل، على صغر سنها، وكبره، وما يفترض فيه من حنكة جلبتها التجربة، ولكن اللّه ينعم على من يشاء من عباده.

وفي الصفحة (١٢٨) من الكتاب نفسه قصة جميلة، بصرف النظر عن حكم الحاكم «زياد»، وإن لم تكن وقعت، فقد أحسن كاتبها عرضها، وأحكم غزلها، تبارى فيها الطرفان، ولكن الغلبة في عين الحاكم كانت للمرأة، لقوة حجتها، ولا أظن الحاكم رجع إلى الشرع في حكمه، بل غلبه منطق المرأة، ورقَّة عاطفتها، وحالها.

«عن أبي عبيدة، قال:

جرى بين أبي الأسود الدؤلي، وبين امرأته خصام في ابن كان لهما، وأراد أخذه منها.

فصارا إلى زياد، والي البصرة، فقالت المرأة:

أصلح اللّه الأمير، هذا ابني، كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سقاءه؛ أكلؤه إذا نام، وأحفظه إذا قام، فلم أزل كذلك، سبعة أعوام، حتى استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوكفت

أوصاله، فحين أمَّلت نفعه، ورجوت دفعه، أراد أن يأخذه مني كرها.

فأنصف بيني وبينه، أيها الأمير، فقد رام قهري، وأراد قسري.

فقال أبو الأسود: أصلحك اللّه، هذا ابني، حملتُه قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أنظر في أدبه، وأنظر في أوده، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى كمل عقله، واستحكم قلبه.

قالت المرأة: صدق ـ أصلحك اللّه ـ حمله خفّاً، وحملته ثقلا، ووضعه شهوة، ووضعته كرها.

قال زياد: أردد على المرأة ولدها، فهي أحقّ به منك، ودعني من سجعك»(١).

وفي الكتاب نفسه أيضاً في الصفحة (١٢٩)، يرويها الأصمعي، وهو المغرم بروايات الأعراب، من

(١) وردت القصة في عدة كتب من التراث، ومنها «الأمالي» للقالي، ج ٢ ص ١٤، طبعة منشورات المكتب الإسلامي، قطر.

الرجال والنساء، وهي قصة فيها فصاحة قد لا تكون المرأة قالتها كما رويت لنا، ولكن الأصمعي اجتباها «سبورة»، تكون له وسيلة إيضاح، ونحن، بعاطفتنا، نقدّر له هذا، ونساق معه، لهذه الإشاعة الأدبية، وقد أحسن الأصمعي اختيار الأشخاص، والموضوع المتحدث عنه، والزمن الذي حدث فيه الحدث، وسير الرواية، وبدءها، ومنتهاها!.

«وعن الأصمعي، قال:

دخلت أعرابية على عبيد اللّه بن أبي بكرة، بالبصرة، فوقفت بين السماطين، وقالت:

أصلح اللّه الأمير، وأمتع به، حدرتنا إليك سنة اشتد بلاؤها، وانكشف غطاؤها، وجئتك لعَود صبية صغار، وآخرين كبار، من بلدة شاسعة، تخفضني خافضة، وترفعني رافعة، لملمات من الدهر، أذهبن لحمي، وبرين عظمي، وتركنني

والهة، أدور بالحضيض، وقد ضاق بي البلد العريض، فسألت أحياء العرب عن المعطي سائله، المبذول نائله، فدللت عليك.

أنا امرأة من هوازن، مات الوالد، وعدم الوافد، وأنت بعد اللّه ـ غياثي، ومنتهى أملي، فاصنع بي خصلة من ثلاث: إمّا أن تقيم أودي، أو تحسن رفدي، أو تردني إلى بلدي.

فقال عبيد اللّه: إجلسي، وكل ذلك لك عندي.

وأمر أن يجري عليها كما يجري على عياله».

وهناك قصة استشهدتُ بها على بعض أساليب النحل، عنوانها «ما لم يحدث»، من المناسب أن أذكرها هنا، وهي، وإن كانت مؤلفة، إلا أنها تعطي صورة واضحة لما كان مقبولا في ذلك الوقت، ونظرة الناس إلى المرأة، وفي هذه الحالة المرأة أم، مما يدل على تقدير الأم تقديراً متناهياً.

والقصة وردت في كتاب: «المختار من نوادر الأخبار ص: ٣٣»، وتُري ما جاء من رأي المرأة من فائدة، والحجة التي اتخذتها ذريعة لتهدئة ابنها، حتى استطاعت أن تجعله يفعل خلافا لما كان نوى أن يفعله، وهذه هي القصة.

«جلس النعمان بن المنذر وعليه حلة مرصعة بالدر، لم ير مثلها، وأذن للعرب بالدخول عليه، وكان فيهم أوس بن حارثة، قال:

فجعلت العرب تنظر إلى الحلة، وكل منهم يقول لصاحبه: ما رأيت مثل هذه أبداً، ولا سمعنا أن أحداً من الملوك قدر على مثلها.

قال: وأوس بن حارثة مطرق لا ينظر إليها.

فقال له النعمان: ما أرى كل من دخل عليَّ إلا استحسن هذه الحلة، وتحدث مع صاحبه في أمرها، إلا أنت، مع نقصان أمرها عندي، فما رأيتك

استحسنتها، ولا نظرت إليها.

فقال أوس: أسعد اللّه الملك، إنما تُستحسن الحلة إذا كانت في يد التاجر، وأما إذا كانت على الملك، وأشرق فيها وجهه، فنظري مقصور عليه، لا عليها.

فاسترجح عقله، واستحسن قوله، فلما عزموا على الإنصراف، قال النعمان:

اجتمعوا إليّ في غد، فإني ملبس هذه الحلة لسيد العرب منكم.

فانصرفوا عنه، وكل يزعم أنه لابس الحلة في غد.

فلما أصبحوا تزيَّنوا بأفخر الملابس، وتقلدوا بأصح السيوف، وركبوا أجود الخيول، وحضروا إلى النعمان، وتأخر عنه أوس بن حارثة، فقال له أصحابه:

مالك لا تغدو مع الناس إلى مجلس الملك؟

فلعلك تكون صاحب الحلة.

فقال أوس: إن كنت سيّد قومي، فما أنا سيد العرب عند نفسي، وإن حضرت ولم آخذها، انصرفت منقوصاً، وإن كنت المطلوب بها، فسيعرف مكاني.

فأمسكوا عنه.

ونظر النعمان في وجوه القوم، فلم يَرَ أوس ابن حارثة، فاستدعى بعض خاصته، وقال:

اذهب لتعرف خبر أوس.

فمضى رسول النعمان، واستخبر بعض أصحابه، فأخبره بمقالته، فعاد إلى النعمان، وأخبره بذلك.

فبعث إليه النعمان رسولاً، وقال:

احضر آمناً مما خفت، فحضر أوس بثيابه التي كان حضر بها بالأمس، وكانت العرب استبشرت بتأخره خوفا من أن يكون آخذ الحلة، فلما حضر،

وأخذ مجلسه، قال له النعمان:

لم أرك غيّرت ثيابك في يومك، فالبس هذه الحلة، لتتجمّل بها، ثم خلعها، وألبسها له.

فاشتدَّ ذلك على العرب، وحسدوه، وقالوا:

لا حيلة لنا فيه إلا أن نُرَغِّب الشعراء أن يهجوه بقبيح الشعر، فإنه لا يخفض رفعته إلا الشعر.

فجمعوا فيما بينهم خمس مئة ناقة، وأتوا بها إلى رجل يقال له جرول (الحطيئة)، وقالوا له:

خذ هذه، واهج لنا أوس بن حارثة، وكان جرول، يومئذ، أشعر العرب، وأقواهم هجاءً.

فقال لهم: يا قوم، كيف أهجو رجلاً حسيباً، لا ينكر بيته، كريما لا ينقطع عطاؤه، فاضلاً لا يطعن على رأيه، شجاعاً لا يضام نزيله، محسناً لا أرى في بيتي شيئاً إلا من فضله.

وقيل إنه قال:

كيف الهجاء وما تنفكُّ صالحة

من آل لام بظهر الغيب تأتيني

فسمع بذلك رجل يقال له بشر بن أبي خازم، شاعر، فرغب في البذل، وأخذ الخمس مئة ناقة، وهجاه، وذكر أمَّه «سُعدَى».

فسمع أوس بذلك، فوجّه في طلبه، فهرب، وترك الإبل، فأتوا بها إلى أوس بن حارثة، فأخذها وشد في طلبه.

وجعل بشر بن أبي خازم يطوف أحياء العرب، يلتمس عزيزاً يجيره على أوس، وكلّ من قصده يقول له:

أجرتك إلا من أوس بن حارثة، فإني لا أقدر أن أجيرك عليه.

وكان أوس قد أدلى عليه العيون، فرآه من كان يرصده، فقبض عليه، وأتى به إلى أوس.

فلما مثل بين يديه، قال له:
ويلك، أتذكر أمِّي، وليس في عصرنا مثلها.
قال: قد كان ذلك، أيها الأمير.
قال: واللّه، لأقتلنَّك قتلة تحيا بها «سُعدَى»، يعني أمَّه.
ثم دخل أوس على أمِّه «سُعدَى»، وقال لها:
قد أتيتك بالشاعر الذي هجاك، وقد آليت لأقتلنَّه قتلة تحيين بها.
قالَت: يا بُنيَّ، أوخير من ذلك؟
قال: ما هو؟
قالت: إنه لا يجد ناصراً منك، ولا مجيراً عليك، وإنَّا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس، فبحقي عليك إلا أطلقته، ورددت عليه إبله، وأعطيته من مالك مثلها، ومن مالي مثل ذلك، وارجعه سالما لأهله، فإنهم قد أيسوا منه.

فخرج إليه أوس، وقال:

ما تقول إني فاعل بك.

قال: تقتلني، لا محالة.

قال: أتستحق ذلك؟

قال: نعم.

قال: إن «سُعدَى» التي قد هجوتها قد أشارت بكذا وكذا.

ثم حلّ كتافه، وقال له:

انصرف إلى أهلك سالماً، وخذ ما أمرت لك به.

فرفع بشر يده إلى السماء، وقال:

اللهم أنت الشاهد عليَّ، لا أعود إلى شعرٍ إلا أن يكون مدحاً في أوس بن حارثة.

وله، بعد ذلك، فيه قصائد مشهورة».

طاش عقل أوس لما علم بهجاء بشر لأمه، وله الحق في هذا، وله الحق في أن يعزم على

مسكه، وقتله شر قتله، والغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفؤه.

ولكن المرأة الناضجة، التي جرّبت الحياة، وعرفت روح الصحراء، وما تقتضيه، وبعيداً عن الغضب سمحت لإشعاع باهر أن يضيء عقلها، وذهنها، وروحها، فرأت ما لم ير ابنها، ورمت به إلى ما لم يرم إليه، وجنَت من الشوك عنباً، وجعلت قلب الشاعر الشرير يبْيَضّ، ويصفو، ويمتلئ بالخير، يبهر ضياؤه، وتصدحٍ منه بلابل مدح، الواحدة منها تساوي آلافا من حُمر النعم.

إنها تسجل للمرأة فضيلة، تكتب بأحرف من نور.

هذا إن كان ما قيل قد حدث، وإن لم يكن، فإن الكاتب، وهو أقرب لأهل ذاك الزمان ونسائه، قد أحسن بها الظن، وسجل ما اقتنع أنه حق،

ويمكن أن يحدث.

وتُروى قصص عن بعض النساء تدل على عقل ناضج وتدبير متقن، ويزيد ذلك حدة كلما تعلّق الأمر بمملكة المرأة، والخوف على حدودها من أن تنتهك، ويدخل حماها من يشاركها فيها، أو يدخل متُمسكناً حتى يتمكّن، فيخرجها منها، والقصة الآتية تدل على ذكاء خارق، مع صبر وأناة، ومعرفة بوقت التحرك والانقضاض، وهذه هي القصة:

«عن المساور قال:

كان عندنا بالأهواز رجل متأهل، وكانت له أرض بالبصرة، وكان في السنة يأتيها مرة أو مرتين، فتزوج بها امرأة ليس لها إلا عمّ في الدار، وكان يكثر الأعذار بعد ذلك إلى البصرة، فأنكرت الأهوازية حاله، فدست من يعرف خبره، ثم احتالت، (وبعثت

من أورد خطّاً لعم المرأة البصرية «كذا»)، وسألت من كتب كتاباً من عمِ البصرية إلى زوجها على خطه بأن ابنة أخيه تُوفيت، ويسأله القدوم لأخذ ما خلفت، ودست الكتاب مع إنسان شبيه بالملاح.

فلما أتى بالكتاب خرج إليه، فدفع الكتاب، ولم يشك أن امرأته البصريّة ماتت، فقال لامرأته:

إجعلي لي سُفرة.

قالت: ولم.

قال: أريد الخروج إلى البصرة.

قالت: وكم هذه البصرة! قد رابني أمرك، وما أشك أن هنالك امرأة، فأنكر ذلك.

فقالت: إن كنت صادقاً، فاحلف بطلاق كل امرأة لك غيري.

فقال في نفسه: تلك قد ماتت، وليس عليّ أن أحلف بطلاقها، فأرضي هذه!

فحلف لها بطلاق كل امرأة له سوى الأهوازية.

فقالت الأهوازية: هاتي السفرة، فقد أغناك الله عن الخروج.

قال: وما ذلك؟

قالت: قد طلقت الفاسقة.

وقصت عليه القصة، فعرف مكرها، وأقام»[1].

ومسك الختام في هذه العجالة قصة هي من أبهى القصص، وأكثرها إشعاعاً، وأنطقها لساناً عن فضل المرأة وحسن تبصرها وتدبرها، ورزانة عقلها، ونباهة ذهنها، ورؤيتها لأمر سياسي أنهى شدة استعر أوارها، وشغلت أذهان الرجال، لأن أعصابهم كانت ممسوسة، وتوالى عليهم أمور لم تدع لهم عقولاً تقبل ما يمرون به، كان هذا بعد صلح الحديبية، والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) المحاسن والأضداد، للجاحظ ص: ١٧٧، دار إحياء العلوم ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

يرى ما لم يره صحابته ـ رضوان اللّه عليهم ـ فلم يُقبلوا على نحر الهدي أو حلق رؤوسهم، ولم يقم أحد منهم إلى ذلك، رغم أنه طلب هذا، كما يقال، ثلاث مرات.

فدخل ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى زوجته أم سلمة وأخبرها، فأبدت له رأياً حكيماً مباركاً، وقالت قولاً صائباً، عندما أشارت إليه بأن يبدأ هو بما طلب منهم فعله، فقام بذلك، فقاموا ونحروا، وتسابقوا إلى التقوى، فصار أحدهم يحلق للثاني وبعضهم يقصر، فدعا ـ عليه السلام ـ لمن حلق ثلاثا ولمن قصر واحدة.

هذه إضاءة فكر امرأة، ويا لها من إضاءة رضي الله عنها.

***

(٣) سياسة وسائسون

للسياسة أحكام يؤتاها من وفقه اللّه، وأراد له الخير، يفتح له أبواباً يرى منها ما لا يراه غيره، وقد يَرْقُدُ خلف حسن السياسة مَلَكَة، يولد الحاكم وهي فيه، فيُغذيها من التجارب، ويوسعها بما يمر عليه من أحداث، تَبَصَّر فيها، وفي مجاريها، وعرف منها الجادّة الموصلة، والأخرى غير الموصلة، وعرف هذه الجوادّ، وما قد يكون في إحداها من أشواك، وصخور، وعراقيل، وما فيها من مهاو سحيقة، وأخطار محدقة، وما قد يكون خلافَ ذلك من تمهيد، وعلائم هدى، وأزهار وورود؛ وقد يسلك الطريق الصعب مختاراً لأنه في النهاية يوصل إلى السهل.

كل أمر في السياسة له طبيعته، ويختلف عن غيره، حتى الأحداث التي تبدو متماثلة، يجعل الزمن التعامل معها مختلفا، والظروف التي حولها مهمة، مهما كانت طفيفة.

وما يراه سياسي حازم قد لا يراه سياسي آخر متراخ، والسياسي الذي بلغ من النضج مبلغه، يزن الأمور بميزان ذهب، حتى يضمن النجاح، ولكل سياسي ناجح طريقته في الخطوات نحو الهدف، وفي الكلمات، وفي التعابير على الوجه، وفي حركة اليدين، وفي ديباجة الخطاب، وفي ختامه، وفي حسن اختيار الكلمات والجمل والأسلوب، والخطّة.

في أمر واحد، تعدّد فيه الأشخاص، واشتبكت المصالح، يسير السياسي الموفَق مع كل فرد بما يتناسب مع مقامه، ومع طبعه، ومع ما يعرفه عنه، وعن محيطه، وأسرته، وخلطائه، وطريقة تعامله

مع الناس، مدى محافظته على السر، وهل هو جائع مَجد، أو مفْعمٌ وعاؤه بالمجد، وهذا العنصر مهم جداً، لأن جائعَ المجد يحتاج إلى أن يملأ وعاءه بما يشبعه، فيرقى سلم المجد، كما يظن، بإفشاء الأسرار، والتظاهر، والمفعم وعاؤه بالمجد والسؤدد لا يحتاج إلى ذلك، فهو حريص على السر، لأن فخره في هذا، ولأن دوام قربه من الحاكم يوجب عليه ذلك، لتبقى هذه القربى، ولا يهزها نزق، أو تهور.

في كتاب: «المختار من نوادر الأخبار ص: ٨٩» قصة فيها من النضج السياسي ما أقنعني أن أختارها لأكتب عنها، كما اختارها المقري في كتابه هذا، وهذه هي القصة المثيرة، ولأبْقي اللذة، سوف أصرف ذهني متعمداً عن أي بصيص مما قد يشكك في صحة وقوعها، وأنصح القارئ أن يفعل ذلك حتى

تكتمل لذّته، وحتى يستفيد من مرمى الحكمة فيها، وهي الهدف السامي في القصة:

«لمّا ولي الحجاج الحرمين، حظي عنده إبراهيم ابن محمد بن طلحة (ابن عبيد اللّه، أسد الحجاز)، فلما أراد الحجاج الرجوع إلى الشام، إلى عبدالملك ابن مروان، أوفد معه إبراهيم بن محمد، يريد له خيراً عند عبدالملك.

فلما دخل الحجاج على عبدالملك، لم يبدأ بشيء قبل شكره في إبراهيم بن محمد، فقال:

يا أمير المؤمنين، لقد أتيتك برجل الحجاز، في الشرف، والأبوة، والفضل، والمروءة، مع ما هو عليه من حسن الطاعة، وجميل المناصحة، واللّه لم يكن في الحجاز له نظير فباللّه، يا أمير المؤمنين، إلا فعلت معه من الخير ما هو مستحقه.

فقال عبدالملك: واللّه، يا أبا محمد، لقد

ذكرتنا بحق وجب علينا، إئذن له في الدخول.

فلما دخل على عبدالملك أمر بجلوسه في صدر المجلس، ثم رحب به، وأهّل به، وقال له:

إن أبا محمد الحجاج ذكر لنا منك ما لم نعرفه من كمال مروءتك، وحسن نصيحتك، فلا تدع في صدرك حاجة إلا ذكرتها، وأعلمتنا بها، حتى نقضيها لك، ولا نضيع شكر أبي محمد «الحجاج» فيك.

فقال له إبراهيم:

إن حاجتي التي أبغي بها وجه اللّه ـ تعالى ـ ونصيحة أمير المؤمنين، والتقرب إلى اللّه، وإلى النبي ﷺ، في القيامة، فأنا أبدأ بها، يا أمير المؤمنين.

قال: اذكرها لي.

قال: لم أقلها إلا بيني وبينك سراً من غير حضور شخص ثالث.

قال: ولا صديقك الحجاج؟

قال: ولا هو.

فقال الخليفة: قم يا حجاج.

فقام خجلا، وهو لا يعرف أين يطأ قدمه.

فقال: يا إبراهيم، هات نصيحتك.

فقال: اعلم، يا أمير المؤمنين، إنك ولَّيت الحجاج الحرمين، وفيهم من تعرف من أولاد المهاجرين والأنصار، وأصحاب النبي ﷺ مع ما تعلمه من ظلمه، وعسفه، وجوره، وبعده عن الحق، وقربه من الباطل، يسومهم الخسف، ويطؤهم بالعسف، ليت شعري! أي جواب أعددت لرسول الله ﷺ إذا سألك في عرصات القيامة عن ذلك؟

فبالله، يا أمير المؤمنين، إلا عزلته، وادّخرتها قربة إلى الله ـ تعالى.

فقال عبدالملك: قد ظن الحجاج الخير بغير أهله.

ثم قال: قم يا إبراهيم.

قال إبراهيم: فقمت على أنحس حال، وخرجت من المجلس، وقد اسودّت الأرض في وجهي، فتبعني حاجبه، وقبض على يدي، وأجلسني في الدهليز.

ثم دعا بالحجاج، فدخل، فمكث طويلاً عند الخليفة، وما شككت أنهما يتناجيان في قتلي.

ثم دعاني فقمت، ودخلت، فوافاني الحجاج، وكان خارجا، فعانقني، وقال:

جزاك الله عن الصحبة خيراً، والله لئن عشت لأرفعنّ قدرك، ثم تركني، فدخلت، وأنا أقول في نفسي:

إنه يهزأ بي، ويتوعّدني، وهو معذور.

فلما دخلت على عبدالملك بن مروان، وأنا خائف منه، أجلسني مكاني الأول، ثم قال:

قد علمتُ صدقك، وعزلته عن الحرمين، وولَّيته العراق، وأخبرته أنك تطلب له الزيادة في الأعمال، وأنت مساعده، وهو يظن أنك السبب في توليه العراق، وقد تهلل وجهه سروراً، فسرْ معه أينما توجه يولك خيراً، ولا تقطع نصيحتك عنا».

لقد تصرف الخليفة عبدالملك تصرف داهية في السياسة، فأوهم إبراهيم شيئاً، وهيأه لمهمة، وأوهم الحجاج شيئاً، وزاد ثقته في جاسوسه.

وكلا الرجلين وضع في الظلام، ولم يبق في النور إلا عبدالملك، تحت وهج منه مشع، وانتهى الأمر بسياسة حكيمة، أدت منافع عظيمة للدولة، خلَّصت مكة من الحجاج، ولم يفرّط في الحجاج، وانتفع الناصح بنصيحته، والحجاج، الذي ثبَّت ملك عبدالملك في مكة، سيفعل مثل ذلك في العراق، وفوق هذا كسب الخليفة جاسوساً له، قريباً من

الحجاج، يوافي الخليفة بأخبار العراق، وحاكم العراق.

وفي زمننا قصة فيها تصرف حكمة وسياسة، وهي قصة رجل مرموق يقيم في مدينة، وابنه في مدينة أخرى، وقد اعتمد على ابنه في إدارة شؤونه في هذه المدينة، ويزور الابن أباه في كل سنة، ويبقى معه شهراً، أو شهرين، إذا حل الموسم.

وللإبن خادم لصيق به، وكان للابن سفه من سفه الشباب، وكان هذا الخادم يراسل والد الابن سراً، ويخبره بنزوات ابنه، والأب يخفي ذلك عن ابنه، وفي إحدى رحلاته إلى حيث يقيم والده، وعند عودته، وهو يودعه، أعطى ابنه صرّة فيها أوراق، فلما خلا الابن بنفسه فتحها، ووجد فيها كتباً من خادمه لوالده، يطلعه فيها على تصرفاته، ويحصي عليه فيها عثراته، ويفصل

أخبار سفراته، ويعدد أصدقاءه وأخدانه.

فأخفى الأمر عن كل أحد، وبقي الخادم عنده على ما كان عليه في الماضي، لمدة ست سنوات، وفي يوم من الأيام، وكان ينوي السفر للخارج، والخادم وآخرون معه لتوديعه، وبعد أن وضع قدمه على أول درجات سلّم الطائرة التفت إلى خادمه، وقال له:

إعط ما لديك من حسابٍ وقيود، ومفاتيح مخازن لفلان، وأنت معفىً من خدمتي.

لابد أنه لما تسلم الأوراق من والده في رحلته تلك، فكَّر في الأمر، والطريقة التي يبيض بها صفحته عند والده، فوجد أن أفضل طريقة للتبييض هي أن يقوم بذلك من سوّدها، فأخذ يحسن من سيره، ويحتاط في أن لا يطلع الخادم إلا على ما يسرّ والده، ورأى أن تكون المدة كافية لذلك، فأكملها ست سنوات، ومن المؤكد أنها جاءت

بهذا الهدف.

فكر أيضاً أن إخفاءها سوف لا يجعل ثقة الخادم بوالده تهتز، وأن يوهمه أنه لايزال محل ثقة والده، مما يحثه على مواصلة الاتصال بوالده، وأن والده سوف يسر من إخفائه الخبر، وكل من الوالد والولد يعرف الآخر جيداً، ويعرف ما يدور بذهنه، وما يرمي إليه، وما يراد من الفعل المتخذ، وهذا يحقق هدفاً آخر من السياسة التي اتبعها الوالد والولد، والتدبير الذي دبراه.

والهدف الثالث أن هذه المدة التي صبرها الإبن مع هذا الخادم كفيلة أن تبعد الحدس عن أسباب طرد الخادم، وقبر الأمر بسواده في مهده.

ونذهب مرة أخرى إلى التراث نغرف من معينه ما يتناسب مع هذا الباب، ويسير معه في ظل واحد، وتحت سقف واحد؛ الهدف النهائي معه الإصلاح

والمنفعة سواء كان لإفادة شخص، أو مصلحة شركة، أو لحفظ أمور دولة.

والقصة مذكورة في «كتاب الأذكياء، ص: ٣٧»:

«حدثنا أبو علي بن مقلة قال:

كنت أكتب لأبي الحسن بن الفرات، أخدم بين يديه، فكنت كذلك معه، إلى أن تقلد الوزارة الأولى، فلما وقعت فتنة ابن المعتز أمر بقبض ما في دور المخالفين، الذين بايعوا ابن المعتز، وكانت أمتعتهم تقبض، وتحمل إليه، فيراها، وينفذها إلى خزائن المقتدر فجاؤوه يوماً بصندوقين، فقالوا له:

هذان وجدناهما في دار ابن المعتز.

فقال: أفعلمتم ما فيهما؟

قالوا: نعم، جرائد من بايعه من الناس بأسمائهم، وأنسابهم.

فقال: لا تفتح.

ثم قال: يا غلمان، هاتوا ناراً، فجاء الفراشون بفحم، وأمرهم، فأججوا النار، وأقبل عليّ، وعلى من كان حاضرا، فقال:

واللّه، لو رأيت من هذين الصندوقين ورقة واحدة لظن كل من له اسم أني قد عرفته، فتفسد نيات العالم كلهم عليّ، وعلى الخليفة، وما هذا رأي، حرقوهما.

قال: فطرحا بأقفالهما في النار.

فلما احترقا بحضرته أقبل عليّ، فقال:

يا أبا علي، قد أمَّنت كل من جنى، وبايع ابن المعتز، وأمرني الخليفة بأمانه، فاكتب للناس الأمان منّي، ولا يلتمس منك أحد أماناً ـ كائناً من كان ـ إلا كتبته له، وجئني به لأوقع فيه، فقد أفردتك لهذا العمل.

ثم قال لمن حضر:

أشيعوا ما قلته حتى يأنس المستترون بأبي علي، ويكاتبوه في طلب الأمان، فشكرناه، ودعت الجماعة له، وشاع الخبر، وكتبت الأمانات، فكتب في ذلك مئة ألف، أو نحوها».

هذا تصرف رجل عاقل، وسياسي محنك، وفقه اللّه لعمل، لا يقوم به إلا ذو عزم، وأراح دولة الخليفة من فتن لابد أن تدبر في حالة يأس.

هذا جانب من جوانب الساسة والسياسيين، وهناك جوانب تلمس أموراً أخرى، يسعد مراعيها، ويشقى مهملها، ومن هذه الأمور اختيار الكاتب في بلاد الحاكم الكلمات بدقة متناهية، حتى لا يأتي من الخطأ فيها ما يخل بمقام الحاكم، ومن كتبت له، ولعل القصة الآتية تمثل هذا خير تمثيل:

«في كتاب الوزراء، لابن عبدوس: أن محمد بن عبدالملك، وزير المعتصم والواثق، قرأ يوماً كتاباً على

الواثق، ليشهد فيه على نفسه، فلما بلغ الموضع الذي فيه: «في صحته من عقله، وبدنه، وجواز أمره له، وعليه».

قال أبو الوليد بن أحمد بن أبي دؤاد:

أيقال للخليفة، مثل هذا؟

فقال له محمد: وما أنكرت من هذه الكتب إلا هكذا؟

فقال أبو الوليد: ينبغي أن يكون بين الخليفة وبين العامة فرق في كل شيء!

فقال الواثق: وكيف يكتب؟

فقال: يكتب: في صحة من جسمه، وعلو من رأيه، وتوفيق من ربه.

فخجل محمد.

وأمر الواثق لأبي الوليد بمئة ألف دينار».

لاشك أن هناك فرقاً كبيراً بين الجملتين،

فالأولى لا تليق بالخليفة، وقد تصلح للعامة لما فيها من عدم الثقة بالحالف، بينما الثانية تؤدي المعنى المطلوب، مع احترام وتبجيل، ولهذا أعطى الواثق أبا الوليد المكافأة.

وهذا يدخل في ثقافة الجليس عموما، وما يحسن للخلفاء، وما لا يحسن.

والجلوس مع الحكام يقتضي معرفة آدابهم في الحديث، وفي الجلوس، والعاقل يهتم بهذا كثيراً حتى لا يقع في موقف محرج، هو في غنى عنه، في حين أنه يمكنه أن يسأل عن هذه الآداب، ويديرها في ذهنه.

وهذا مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعقله، وفقهه، عندما استدعى الأمر أنه يدخل على الرشيد، احتاط، وسأل عما يجب أن يعلمه، والقصة واردة في كتاب: «آداب الملوك»، للثعالبي، ص (٢٣١):

«لما أراد مالك بن أنس الدخول على الرشيد، أول دخْلة، قال للفضل بن الربيع:

علِّمني كيف أدخل على أمير المؤمنين، وكيف أسلّم عليه، وأين أقف من مجلسه؟».

ولا يستغرب من مالك بن أنس، وهو العالم الجليل، أن يطلب ما يجعله باهيا في عين مضيفه، صاحب المقام الرفيع، وقد استفسر عن ثلاثة أمور هي عصب أصول التأدب في الدخول على الحكام، والجلوس معهم.

وهناك موقف يستوجب الوقفة لما فيه من عقل، وحسن تصرف، وله صلة بما اتخذه مالك، والقصة في كتاب: «آداب الملوك، كذلك (ص: ٢٣٤):

«قال جليس لعبدالله بن زياد له:

أيها الأمير، اعلمني ما يوافقك حتى أمتثله، ولا أجوز إلى غيره، فلعلّي أثقل عليك من حيث

لا أدري:

قال: طلبت الأمر من وجهه: لا تكثرن إتياني، فأملَّك، ولا تقعدنَّ عني كل القعود، فأنساك، ولا تكثرنَّ طلب الحوائج للناس، فيُبخل بحاجتك».

موقف معجب من السائل، ومن المجيب، فالمسؤول أبدى إعجابه بأن جليسه دخل في الموضوع مباشرة، وجاء إلى هدفه رأساً، فأراح واستراح، وجاء الجواب شافياً كافياً، يطفح بالحكمة، ويختصر أمراً مهماً من أمور السياسة بجمل محدودة، ولكنها موزونة، ووافية، وجامعة، وتصلح لكل زمان وحاكم.

ومن الملائم في هذا الأمر أن نُطَعِّم هذا الحديث بأبيات من الشعر جاءت جامعة لحسن السياسة، ولامعة في مجالها، وهي لأبي الفتح البستي وهي كذلك من كتاب: «آداب الملوك» للثعالبي، ص: (٢٤٣):

إذا خدمت الملوك فالبس
من التوقّي أعزّ ملبس
وادخل عليهم وأنت أعمى
واخرج - إذا خرجت - أخرس

نصيحة غالية، وقول سديد، جاء في ثوب قشيب، يسهل حفظه، والتحلّي به.

ومما يدخل في السياسة الحكيمة الحذر في الحديث مما قد يفهم منه تلميح لا يليق بالمتحدث، وهذا يحتاج إلى عقل وثقافة وتجربة ونباهة فائقة، والقصة الآتية تعطي خير مثل لنباهة المتحدث، ومراعاته أمراً قد لا يتنبه له إلا قليل من الناس، وهو في كتاب: «آداب الملوك، ص: ٧٨»:

«لما بلغ المنصور خروج محمد وإبراهيم ابنا عبدالله بن الحسن، كان في بستان له، فرأى شجيرة حين طلعت، فقال للربيع:

ما هذه؟ وكانت شجرة «خلاف»، فَكَرِهَ أن يقول: «خلاف»، فقال:

هذه «إجماع»، يا أمير المؤمنين.

فاستعقله، وعلم أنها «خلاف»، وتفاءل بـ «الإجماع».

وقد يعثر المرء في تعامله مع حاكم، فيدرك ذلك بسرعة، وبسرعة يتفادى الخطأ، وهذا يأتي بالدرجة الثانية من سابقه، وهذا تمثله القصة الآتية، من المرجع نفسه، (ص ٧٩):

«قال المأمون يوماً لأحمد بن يوسف [الكاتب]: ناولني السكين، فناوله إياها، وحدَّها مما يلي المأمون، وعلم أنه أخطأ فقال:

في نحر عدوك، يا أمير المؤمنين». (المرجع نفسه، ص: ٧٩).

وقد يكون المرء غريباً على آداب البلاط الخليفي،

فيأتي بأمور منتقدة، وقد يكون السبب في ذلك أنه أراد بفعله أن يكون له حظوة، ويزيد قرباً من الخليفة، فأركسته نيته، والقصة الآتية مثل صادق لذلك:

(المصدر نفسه، ص: ٢٣٠):

«دخل الشعبي على عبدالملك بن مروان، أول دخلة، فلما أخذ في الكلام كنَّى رجلاً، فقال عبدالملك:

أخطأت، الملوك لا يكنَّى أحد بحضرتهم.

وجرى الحديث فقال:

اكتبنيه يا أمير المؤمنين.

فقال: أخطأت، الملوك لا يستكتبون.

واستفهمه كلاماً، فقال:

ولا يستفهمون.

ثم استعاده، فقال:

ولا يستعادون.

فخرج من مجلسه يجرّ ذيل الخجل».

هذه من آداب مجالسة الملوك، كما قال الخليفة، عبدالملك بن مروان، فإن كان عدو للشعبي قد نحله هذا، فيبقى أنها آداب في محلها.

والشعراء، والأدباء، والكتّاب، يؤلف بعضهم ما يلمس منافسيهم، وكُثّير عزة من الشعراء المعروفين في سجل كتب الأدب، وهو من شعراء الغزل، وما قيل عنه في النص الآتي قد يكون صحيحا، وقد يكون منحولا، والنص في «ص: ٢٣٠».

«كان كُثّير يحضر (سمر) يزيد بن عبدالملك، فقال له ليلة:

يا أمير المومنين، ما يعني «الشَمَّاخ» بقوله:

وقد عرقت مغابنها وجادت

بدرتها قرى حَجن قتين؟

فقال: وما يضر أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قاله أعرابي، بوّال على عقبيه، هو القراد أشبه خلق

اللّه بك.

وكان كُثّير قصيراً قميئاً دميماً».

سؤال الملوك أمر معيب، لأن الملك قد لا يعرف الجواب، فيحرجه ذلك أمام جلسائه، وينزله عن مستوى درجته من العلم، ورد يزيد يوحي بأنه أحسّ وكأن كُثّير يختبره، فأخبره بالجواب، ولكن بعد أن شتمه.

وقصة أحد الأدباء الرواة مع الرشيد تدخل تحت باب العثرة في حضرة الملوك، والقصة في «ص: ٢٣٠»:

«قال الرشيد يوماً للأصمعي:

أخبرني عن فلان، لإنسان من العرب.

فقال له: على الخبير سقطت، يا أمير المؤمنين.

فقال له الفضل بن الربيع: أسقط اللّه أنفك وعينيك، أهكذا يخاطب الخلفاء؟».

وهي سقطة كبرى بلاشك، ولم يوفق

الأصمعي إلى كلمة مناسبة، فجاء بهذه العبارة السوقية، التي توحي أن جلساءه من العامة، وكان بإمكانه أن يقول: عندي خبر بهذا، أو من حسن حظّي أني أستطيع أن أجيب الخليفة، لأني سبق أن اطلعت على هذا.

وقد يصل الأمر إلى حد لم يتنبه له المخطئ، لأنه بعيد عن محيط الخلفاء، ومجالسة علْية القوم، في حين أن الخليفة يرى فيها أكثر من خطأ، ولا تفسر العثرة بأنها بحسن نيّة، وإنما أحياناً توحي بأنها مقصودة، فتأتي قاتلة، والقصة الآتية من كتاب: «آداب الملوك، ص: ٢٣١» خير مثل لذلك:

«دخل الفيض بن أبي صالح على الرشيد، فمدّ يده إليه ليقبلها، فلم ينكب عليها، ورفعها إلى فيه، وقبَّلها.

فقال الرشيد: لولا حمقه لقتلته».

وقد مر في الكتاب بعض ما لعبت فيه النية دوراً رئيساً، فأحبطت عمل صاحبها، وجاءته بخلاف ما أمَّله، لأنه لم يرد وجه اللّه، ولم يكن مخلصاً لولي أمره فيما أقدم عليه، وأعمته فكرة الانتفاع من الظرف القائم ما قد يكون هناك من خطل فيما فكر فيه، والقصة الواردة في (ص: ٢١٩) خير مثل لهذا:

«لما أُتي عبداللّه بن علي برأس مروان بن محمد جلس بعض جلسائه يذُمّ مروان، ويصغِّره، فقال له عبداللّه:

مهلا عن تصغير «أبي عبدالملك»، فإن تصغر مقتولا فقد صغَّرت قاتله».

وأشد من هذا القصة الآتية من «ص: ٢٢٠»:

«لما أُتي المنصور برأس إبراهيم بن عبداللّه بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فوُضع بين يديه، تقدم رجل من الدنو بين يديه، فضرب

الرأس بعمود كان في يده، فغضب المنصور، وقال للمسيب بن زهير:

سوِّ وجهه.

فقام إليه، فدق أنفه.

ثم قال المنصور: يابن الفاعلة، تجيء إلى رأس ابن عمي، وقد صار إلى حال لا يدفع فيها، ولا ينفع، فتضربه بعمود، وكأنك رأيته وهو يريد نفسي، فدفعته عني، اخرج إلى لعنة اللّه، وأليم عذابه».

هذه لا تعدو أن تكون نماذج بعضها لأمور منيرة، وأخرى لأمور مظلمة، جاءت معبرة عن السير في هذا الحقل المهم، لعله يستفيد منها من عنده رغبة، وله صلة بالسياسة والسياسيين.

***

(٤) هفــوة نيّـــة

لكل إنسان هفوة، ولكل جواد كبوة، فمادام هناك قول فلابد من زلل إلا من رحم اللّه، ولا سائراً إلا ويتعرض لكبوة أو عثرة، وقد جمع أبوالحسن الصابي المتوفَّى عام ٤٨٠ هجرية عدداً من الهفوات، بعضها وقع نتيجة حسن نيَّة، وبعضها تكمن وراءه سوء نيّة، وهذه الأمثلة التي جاء بها تستحق أن تستقرأ، وأن تحلل، والوقفة عندها مهما طالت فهي مبرَّرة، وتستوجب ذلك، لأن فيها من العبر ما يفيد الناس، ويساعدهم على تجنب العثرات، والزلات، والهفوات، خاصة تلك التي يكون وراءها سوء نيَّة، فإن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ للمسيء بالمرصاد، ويكون العقاب سريعاً عندما

تأتي الهفوة المقصودة من مؤذٍ إلى بَرٍّ كما في القصة الآتية:

حدّث حمدون بن اسماعيل قال:

ما كان في الخلفاء أحلم من الواثق هو [هارون ابن المعتصم بن الرشيد]، ولا أصبر على أذىً وخلاف، وكان يعجبه غناء أبي حشيشة الطنبوري، فوجد المعروف بالمسدود المغني (سُمي المسدود لأن أحد منخريه كان مسدوداً) من ذلك حسداً، وهجا الواثق ببيتين، وكانا معه في رقعة.

واتفق يوماً أن كتب رقعة إلى الواثق في حاجة له، وأراد تسليمها إليه، فغلط منها إلى الرقعة التي تتضمن الهجاء، فسلّمها إلى الواثق، فقرأها، وفيها:

من المسدود في الأنف إلى المسدود في العين
أنا طبل له شق فيا طبلا بشقّين

وكان الواثق على إحدى عينيه فصٌّ، وإلى ذلك نحا المسدود.

فلما قرأها (الواثق) علم أنها فيه، فقال للمسدود:

قد غلطت من رقعة الحاجة التي سألتها إلى هذه الرقعة، فاحترس من مثل هذا.

وردَّها إليه.

فواللّه العظيم ما زاده على هذا القول شيئاً، ولا تغيَّر له عما كان عليه، وكان (الواثق) يحب أن يتشبه بالمأمون في أفعاله[1].

هذه قصة تدل على أن النيّة مطية، وقد أوصلت المسدود إلى هذه الهفوة القاتلة لولا أن الواثق قد وهبه اللّه الحلم والعقل، الحلم: أنه تحمل الهجو الذي مدّ له باليد الآثمة، فلم ينفعل

---

(١) الهفوات النادرة، ص: (٢٢).

ـ وحق له أن ينفعل ـ ولم يغضب، ولم يعاقب، وردّ الورقة السوداء، ولم يزد عن أن طلب من الآثم أن يصحح خطأه، ويعطيه الورقة المقصودة أصلاً، وكأني بالمسدود وهو يتمنى أن تبتلعه الأرض، هذا إذا كان من لحم ودم، أما إذا كان حجراً صلداً لا شعور له، ولا إحساس عنده، فيجيء منه ما لا يُستغرب.

أما العقل الذي تحلى به الواثق، فقد يكون وزن الأمر، فإن هاج، وغضب، وأبرق وأرعد، وأزبد وعاقب المسدود على عدم سداد عقله، وعلى وقاحته، وعلى الهفوة التي فضحه اللّه بها، فقد يتبين الأمر للناس، وتطير الرواة بأخبار الأبيات، وبها، وهذا ليس في صالحه، فكان تصرفه تصرف العاقل الرزين، الذي يزن الأمر، فيأتي منه ما يفيد، ويتجنب ما لا يفيد، وما قد يضر، والعقل نور،

وهو زينة الإنسان إذا منّ اللّه به، ولم تزاحمه في ذهن صاحبه العاطفة، فتأخذ المكان الأوسع، وينزوي العقل في ركن ضيق مقفل، وصدق قائل المثل: «الغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفؤه».

فإذا كان الواثق كما قيل في القصة حريصاً على التشبّه بالمأمون، فهنا إحدى القصص عن المأمون، وفيها هفوة، إلا أنها بحسن نيّة، ولكنها تُبين رباطة جأش المأمون، وحسن تصرفه، وتقديره للمواقف التي تغلب فيها هيبة الحاكم تصرف المحكوم[(١)]:

حكي أن امرأة وقفت للمأمون على الطريق، وقد تحفَّظت كلاماً سجعته، ورتبته، لتدعو له به، وتستميحَه فيه، فانقلب لسانها بالدعاء عليه، على السجع الذي رتبته وهيأته.

---

(١) الهفوات النادرة، ص: (٢٦).

فعلم المأمون أنها غالطة، فقال:

اللّه يفعل بنا ما نويته، لا ما أبديته.

اقضوا حاجتها».

لم يقاطعها المأمون، ولا من كان معه، بل صبر حتى انتهت من دعائها، فرأى ما فيه من خلل، ولكنه أدرك حسن نيتها، والهيبة التي أخذتها من جلال الموقف، فقدّر هذه النيّة حق قدرها.

ونحن نقول: جزى اللّه هذا الخطأ خيراً، فلولاه لم تصل إلينا هذه الطَّريفه.

وكنا تحدثنا عن العقل وأنه نعمة يمنّ اللّه بها على من يشاء، فإذا عدم العقل جاءت الهفوة من التصرف الأخرق، وقد يكون الخرق هفوة متناهية كما في القصة التي يرويها صاحب «الهفوات النادرة»[1]، وجعل عنوانها: «أين هم من العقل»،

(١) ص: (٢٦١).

وهذه هي القصة:

«كان المهاجر بن عبدالله الكلابي أشرف عربي في زمانه، وكان لأم ولد، وعاملا على اليمامة من قبل بني أمية وبني العباس، أربعين سنة، وكان يؤتى في الدية والحماله من كل مكان، فلا يرد أحداً إلا بحاجته، فبينما هو جالس يوماً في منظرة له إذ رأى خمسين راكباً من قومه، قد طلعوا عليه، قاصدين إليه، في زي جميل، ومراكب ورواحل، فسرّه ذلك منهم، وأمر لهم بدار كبيرة، وجعلها برسمهم، وبطعام كثير يصنع لهم، ودخل عليهم، وجعل يحييهم، ويقبل عليهم، فرحاً بهم، وسرورا بما رأى من تجملهم، وهيأتهم.

وأتى بالطعام، فجلس معهم يؤاكلهم، ويحادثهم، ويؤانسهم، ويباسطهم، وهو لا يشك أنّهم جاؤوه في دية، أو حمالة وقعت عليهم، أو

مغرم ثقيل لزمهم.

فقال لهم: حياكم اللّه، وأنعم بكم عينا، يا بني عمي، ما حاجتكم، فقد قضاها اللّه تعالى؟

فقالوا: إن ابن عم لك أصاب رجلا من طائفة العشيرة، فقتله، وهو ابن أم ولد، وقد خفنا أن يؤخذ ابن صريحة، فيكون لهم الفضل علينا، وليس فينا ابن أمٍّ ولد غيرك، فنحن نحب أن تنقاد معنا، ندفعك إلى القوم فيقتلوك [كذا]، ويصلح اللّه تعالى هذا الأمر بك، ولا يكون لهم على عشيرتك فضل.

فلما سمع ذلك منهم، قام عنهم، ودعا صاحب الشرطة، فأخبره الخبر، وأمره أن يُجلس لهم الصبيان في السكك، معهم البعر، ثم يحملهم على رواحلهم محولة وجوههم إلى أذنابها، ويأمر الصبيان بأن يرجموهم بالبعر، وينثروه عليهم، حتى يخرجهم من البلد، فَفَعل بهم ذلك».

ليس في رؤوس هؤلاء القوم عقول، ولا تسمى هذه هفوة، بل مصيبة عظمى، هذا إذا كان شيء من هذا حصل، لأن العاقل يتردد في قبوله، وقد يميل إلى أن القصة مؤلفة، لما هو معروف عن العداوة المتأصلة بين قبيلة بكر وقيس، وكتب الأدب ملأى بما يؤكد هذه العداوة، وبما روي على ألسنتهم، وما ألف لفخر هذه أو تلك، أو لمز إحداهما للأخرى.

ومن الهفوات الكبرى، والتي نأتي بها هنا، لأنها أولا تدل على عقل المأمون من ناحية، وعلى رائحة الوضع والتأليف والافتعال من ناحية أخرى، ولكن فيها من الطرافة، ووسيلة التسلية، ما فيها.

وهذه هي القصة من كتاب [الهفوات النادرة][١]:

«عزم المأمون عند دخوله إلى بغداد على العبور إلى زبيدة، والدة الأمين، ليعزّيها به، فقدم

---

(١) ص: (١٨).

إليها من أعلمها ذلك، وعبر إليها، فعزّاها، وأكثر البكاء معها.

فقالت له: يا أمير المؤمنين إن دوائي، وباب تسليتي في غدائك اليوم عندي، فأقام وتغدّى.

وأخرجت إليه من جواري الأمين من يغنّيه، وسألته أن يأخذ منهن من يرتضيه، فأومأ إلى واحدة منهن لتغنّي، فغنت، وضرب الباقيات عليها:

هُمُ قتلوه كي يكونوا مكانه
كما فعلت يوما بكسرى مرازبُه
فإلا يكونوا قاتليه فإنه
سواء علينا ممسكاه وضاربُه

فوثب المأمون مغضبا.

فقالت له زبيدة:

يا أمير المؤمنين، حرمني اللّه أجره، إن كنت علّمتها، أو دسست إليها به.

فصدقها وعجب من ذلك».

هنا وقفات تستحق أن توقف، أمام جوانب هذه القصة: الأولى، كيف يأكل طعام أمّ موتورة بابنها، أليست هذه فرصة لدسّ السم، والمتوقع أن المعزِّي لا يطيل الجلوس، وبإمكان المأمون أن يعدها بزيارة مقبلة، يكون الجلوس فيها أطول، والحديث أكثر قبولاً.

ثم هذا وقت عزاء وحزن، والغناء والطرب، يتنافيان مع هذا مطلقا، ولكن الواضع، إذا ألقى بالفكرة لا ينتبه لهذه العوائق في الطريق، لأن عينه على الهدف الأصل، الذي ساق له القصة بعد أن ألّفها، ولا يهتم بغيره.

أما إذا كانت القصة صحيحة، وغير مؤلّفة أو متخيّلة، للتسلية والمرح، ففيها، كما رأينا، هفوات، الأولى وهي الأساس اختيار بيتي الوليد بن عتبة،

وكأنهما وضعا أصلا لما حدث بين الأخوين الأمين والمأمون، والثانية الغداء عند موتور، لا يؤمن أن يضع، في لحظة يأس سُمّاً للجميع بما فيهم هو، زيادة في التغطية، وتعمية عن الهدف، والهفوة الثالثة: الطرب والغناء في وقت حزن مكين.

وعندما انتهى المؤلف إلى الهدف الذي أراده، لم يذكر لنا شيئاً عن الجواري اللاتي عرضت زبيدة على المأمون أن يأخذ منهن ما شاء، ولو فعل، لكانت هذه هفوة رابعة، فقد تكون إحداهن مدسوسة لتضع له السم في بيته.

والمأمون له حزب يروي بجدارة ما يحسّن صورته لدى الناس في زمانه، وفي غير زمانه، وأغلبها يتحدث عن حلمه، وسعة صدره، وتحمله لزلات الآخرين، ولكننا لا نستطيع أن نبعد عن أذهاننا ما قد تكون تعرضت له من وضع وتأليف،

وهذه إحداها لما فيها من هفوة أوردها صاحب كتاب: «الهفوات النادرة»[1].

«جلس أبو عباد (ثابت بن يحيى، وزير المأمون، وهو سريع الغضب) يوماً بين يدي المأمون، يكتب، فدخلت شعرة بين سنّي قلمه، وعمد إلى إخراجها بسنِّه، ثم كتب، فإذا هي بحالها، فأهوى إليها ثانية، فقطع طرفها، وبقي أصلها، ثم كتب، فإذا هي غمرت جميع حروفه، فكسر القلم، ورمى به، وقال:

لعنك اللّه، ولعن من براك، ومن أنت له!

فضحك المأمون، وأنشد أبيات دعبل فيه، وهي:

أولى الأمور بضيعة وفساد
أمر يدبّره أبو عباد
خَرِقٌ على جلسائه فكأنما

---

(١) ص: (١٨٣).

حضروا الملحمة ويوم جلاد
وكأنه من دير هِزقل مفلتٌ
حَرد يجرَّ سلاسل الأقياد
فاشدد أمير المؤمنين وثاقه
فأصحّ منه بقية الحداد

والحمق آفة من الآفات التي تؤذي صاحبها، فيم انتفع أبو عباد من كسر قلمه، وسب خليفته؟ ولولا أن هذا الخليفة، واسع الصدر لأتبع رأسه رأس القلم، هذا إذا لم تكن القصة متخيلة.

وأذكر بهذه المناسبة، والحدث عن الحمق، جاراً لنا في حيّ العتيبية في مكة المكرمة، وكان ضيّق الصدر، سريع الغضب، يتصرف بما يأتي له بالضرر، ويجلب له الأذى.

كان قد اعتاد مع جيرانه أن يجلسوا بعد صلاة المغرب بجوار المسجد يتحدثون، انتظاراً لصلاة

العشاء، فأرسلت في إحدى الليالي زوجته ابنه ليخبره أنها لم تستطع أن تحلب العنز، فكلما أرادت أن تمسكها انطلقت كالسهم إلى جهة أخرى من الحوش، وقد قرب أذان العشاء، وهذه المطاردة على أشدها، من ركن من أركان الحوش إلى ركن آخر، وتخشى أن يدخل وقت صلاة العشاء، وهي لم تُصَلِّ صلاة المغرب بعد.

فقال لابنه: أنا في الطريق إليها، قل لها تصلّي، وسوف أنهي عناءها مع هذه العنز.

فجاء وقت دخول زوجته في الصلاة، فأمسك بالعنز، وذبحها، وقطَّع لحمها، ووضعه في «طشت»، ودفعه إليها، وقال: لن تحتاجي إلى مطاردتها بعد اليوم، فقد أرحتك منها، ما أبشعها من راحة!!

وتبين أنه ورث سرعة الغضب من والده ـ رحمه اللّه ـ يقال عنه أن أحد المسنين من كبار القوم في

مدينته طلب منه أن يأتي في المساء ليصب القهوة له ولضيف كبير السن مثله، عزيز عليه، فجاء الرجل في الموعد، وأقبل وبيده دلّة القهوة والفناجين، فصب أول فنجان، وتقدم به للضيف، وقد يكون الضيف أصغر قليلاً في السن من صاحب البيت، فرأى الضيف أن من الأنسب أن يأخذ الفنجان الأول صاحب البيت، فأشار لمن صب القهوة بإعطاء الفنجان لصاحب البيت، ولكن صاحب البيت لم يرد أن يتقدم ضيفه، بصرف النظر عن السن، فأشار لصبّاب القهوة بأن يبدأ بالضيف، وأخذ كل واحد يحيله على الآخر.

فلما رأى أن الأمر طال بينهما، وأنه لا أمل في الوصول إلى رأي قاطع في من هو الأولى بأخذ الفنجان الأول، وضع الدلّه والفناجين على طرف «الوجار» بعنف، وهمّ بترك المكان، وقال إذا اتفقتم

على من هو الأول، فنادوني، أنا في الحجرة المجاورة!!

وقانا اللّه من الحرد وشره.

وحتى تكتمل صورة المأمون وسعة صدره، والهفوات التي يتعرض لها، وأحياناً يده هي التي تجني عليه ما يلاقيه من هذه المواقف المزعجة، والتي يتحملها بسعة صدر، وطول بال، نسوق القصة الآتية:

«دخل أبو عبّاد يوماً إلى المأمون فقال له:

يا ثابت، ما أراد بك دعبل، حيث يقول:

وكأنه من دير هزقلَ مفلت
حرد يجر سلاسل الأقياد

فقال الذي أراد يا أمير المؤمنين حيث يقول:

إني من القوم الذين سيوفهم
قتلت أخاك وشرّفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله
واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال المأمون، وقد تنمّر، وعلم غلطه في خطابه لمثله بما خاطبه به، حتى أجابه عنه بما أجابه: فإني قد عفوت عنه، فلا يُتعرض له![1].

وإعطاء أمثلة من هذا القبيل عن المأمون تكمّل ما نحن بصدده عنه من محاولة إبراز صورة جميلة عنه من ناحية العفو عمن زل، وسعة الصدر أمام الأخطاء التي ترتكب بحقه، وإن كان منه شيء منحول فهو من أجل عدل كفة الهجوم عليه من أنصار الأمين، الذي لم يخل تاريخه من تشويه من جماعة المأمون وأنصاره.

وهذه قصة برواية المأمون نفسه:

قال المأمون: وصفت لي جارية بالعراق، وأنا

(١) الهفوات النادرة، ص: (١٨٤).

بخراسان: عاملة، كاتبة، لاعبة بالشطرنج والنرد، مُفْتَنَّة في كل أدب، فأنفذت فابتعتها بمال كثير، وحُملت إليَّ، فأعجبتني، وشُغلت بها.

واتفق، في بعض الأيام، أن خلوت بها، ولهوت معها، وجعلت الشطرنج بيني وبينها، إذ دخل الفضل بن سهل عليَّ هاجماً، ومعه غلام له، فلما رآني على ذلك، أخذ قنينة كانت بين يدي، وضرب بها الأرض، وقال لي:

أنت على هذه الحال، وتنازع أخاك الخلافة، وتبلغ في التحرق والتوفر على النساء واللهو إلى هذه الغاية، ونحن ندّعي لك التشاغل بالصلاة والصيام!.

وقال لغلامه: خذ بيد الجارية فهي لك!

وورد عليّ من فعله ما كدت أن أجعله سبب دنوّ أجله، ثم كظمت غيظي، وصبرت على

ما لحقني»[1].

في التدبر في هذه القصة تبرز عدة أمور، وهي أولا ما يوحي مجمل القصة من أن المأمون لم يكن مهتماً كل الاهتمام بإزاحة أخيه، والحلول محله، وإنما الطموح جاء ممن حوله، خاصة الشعوبيين، الذين يرون أن المأمون أقرب لهم من ابن زبيدة، الصافي النسب، وأن حنق الفضل بن سهل كان مبرراً، لأنه هو ومن معه، كانوا يقومون بأعمال جادة في سبيل أخذ الخلافة له، وهو لاهٍ في ملذاته.

وثانياً، حرد الفضل، وتصرفه الأحمق بفظاظة ألفاظه، وكسر القنينة، والضرب بها على الأرض، ثم تأتي الطامة الكبرى وهي انتزاع الجارية وإعطاؤها هبة لغلامه، مع تعلّق المأمون بها، ودفعه المبالغ

(١) الهفوات النادرة، ص: (١٨٧).

الطائلة ثمناً لها.

والمأمون كان حاكم خراسان، وكان بإمكانه قتل الفضل، ولكن منعه حلمٌ حَمِدَ نتائجه، وحاجته إلى الفضل في هذا الظرف، ثم ثالثاً إقراره بخطئه في تصرفه مما جعله يعدل عن أن يؤذي الفضل.

ولكن المأمون بشر، وربما حدث ما لم يستطع أن يتجاوز عنه، حتى لا يتهم بالبلادة، والقصة الآتية تصور هذا خير تصوير، وقد جاء بها صاحب كتاب: «الهفوات النادرة»(١)، ويمكن أن تسمى الهفوة التي سوف يقصها «الهفوة القاتلة»، فالمأمون قتل صاحبها بما يشبه القتل بالعسل، والقصة كالآتي:

«قال محمد بن علي بن طاهر بن الحسين:

كان أحمد بن يوسف يسقط السقطة بعد السقطة، فتلفت نفسه في بعض سقطاته، وذاك أنه

(١) ص: (١٩١).

حكى لي علي بن يحيى بن أبي منصور أن المأمون كان إذا تبخّر طُرح له العود والعنبر على المجمر، فحين يبخر يأمر بإخراجه، ووضعه تحت الرجل من جلسائه، إكراماً له.

وحضر أحمد بن يوسف يوماً، وتبخر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع المجمر تحت أحمد بن يوسف، فقال أحمد:

هاتوا ذا المردود.

فقال المأمون: ألنا تقول هذا، ونحن نصل رجلاً واحداً من خدمنا بعشرة آلاف درهم، إنما قصدنا إكرامك، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا البخور قطعة واحدة.

يُحضر عنبر، فأحضر منه شيء في الغاية من الجودة، في كل قطعة ثلاثة مثاقيل.

فأمر أن تطرح قطعة في الجمر، ويبخر بها

أحمد، ويدخل رأسه في زيقه، حتى ينفذ البخور، وفعل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة، وهو يستغيث ويصيح.

وانصرف إلى منزله، وقد احترق دماغه، فاعتلّ ومات».

وبهذا يتبين جانب آخر من جوانب طبع المأمون، ما احترق إلا رئته.

هذه أمثلة مما ورد في كتاب «الهفوات النادرة»، وقد أجاد مؤلفه تأليفه، وأحسن اختيار القصص، ومجيؤها في هذا الموضوع تؤكد حسن الاستفادة منها، من حاكم هو في حاجة لمثل المواعظ التي وردت ضمنها.

***

(٥) عظـــة مـن أديـــب

مثل كثير من القصص التي تكون على هامش السياسة، يهتم قاصُّوها، أو منشؤوها أن تؤدي الهدف الذي قيلت من أجله، وهي لنا صورة صادقة لما كانت عليه حال أهلها حينئذ، وما كان يحتل نفوسهم من شعور، ويدور في أذهانهم من أفكار، يتقن صائغ الجُمَل، ومختار الكلمات، أداءها لما اختيرت له، وما أتي به من أجلها.

والمتعة والطرافة تكاد تكون أساساً ثابتاً لهذه الأمور، يأتي ذلك من أوجه الغرابة التي تنطوي عليها القصة، وما فيها من نُبوٍّ، تأتي متسللة بين السطور، أو تقع مفاجئة، في وقت يختاره المؤلف المتقن لها، والقصة المطولة التي سوف ننقلها من

الكتاب القيّم: «المختار من نوادر الأخبار، ص ٤٥»[1] مَثَل من أمثلة هذه القصص، بعض أغراضها بارز أكثر من غيره، إما بحكم أهميته، أو لأنه يمهد لغرض له الأهمية الكبرى، أو لأنه عنصر من عناصر التشويق والشَّدِّ.

ولابد أن كاتبها كان قريباً من زمن مَنْ يؤرّخ لهم، ويرسم صور حياتهم، ومجتمعهم، وما يدور فيه، وما يحويه من أناس، ومساكن وساكنين، وما هم عليه من عادات، وما يراعونه من تقاليد، ففائدتنا الجانبية التي تُلَوِّن أذهاننا عن تلك المجتمعات هي ما لم يقصده الكاتب، مثل وصفه في هذه القصة لمجلس الخيزران، وموقع زينب منها، وما صاحب ذلك من استشارة الخيزران لزينب في السماح بالإذن للضيفة المجهولة بالدخول من عدمه، وتعضيد

(١) وهي واردة في كتاب: «الحدائق الغنّاء في أخبار النساء» للمعافري، المالقي، ص: ١٧٤، الدار العربية للكتاب، بيروت.

الخليفة المهدي لتصرف الخيزران، وجزعه من تصرف زينب.

في كل هذه الأمور، وفي غيرها مما هو أصغر منها، وقفات يشعر المتبصر بأن فيها صوراً لو رسمت لأخذت من الجوائز ما لا يخطر على البال.

وهذه هي القصة بما فيها من ظُلَمْ، وما فيها من أنوار، وما تحويه من جوانب قسوة، وما تطوي عليه أضلاعها من مواعظ وعبر، وما ينبلج منها من فعل الزمن بأهله، وتقلبه، دون قاعدة ثابتة، بها يتجنب عسره، ويعض بالنواجذ على يسره:

«وحدّث أبو موسى الفضل عن أبيه، قال:

سمعت زينب بنت سليمان بن علي بن عبدالله ابن عباس، قالت:

كنت عند الخيزران (زوجة المهدي ووالدة الهادي وهارون الرشيد) جارية المهدي، وعادتها

إذا كنت عندها تجلس في عتبة باب الرواق، مقابل الإيوان، وأجلس أنا بإزائها في الصدر، في مجلس كان «المهدي» يجلس فيه، وهو يقصدنا في كل وقت، يجلس عندنا في بعض الأوقات ساعة ثم ينهض.

فبينما نحن كذلك، إذ دخلت علينا جارية من جواري الخيزران، اللاتي يحجبنها، فقالت:

أعزّ اللّه السيدة، إن بالباب امرأة، ذات حسن وجمال، وخلقة حسنة، وهي على غاية من سوء الحال، تستأذن عليك، فسألتها عن اسمها فامتنعت من ذلك.

قالت زينب: فأشارت الخيزران إليّ، وقالت: ما ترين؟

فقلت: ما يضرّ من دخولها شيء، فلابد من فائدة، أو ثواب.

فدخلت امرأة أجمل ما يكون من النساء، وأكملهنّ، فوقفت إلى جانب الباب، وسلّمت..

وقالت: أنا مُرَيَّة بنت مروان بن محمد الأموي.

قالت زينب: وكنت متكئة، فقمت جالسة.

فقلت: مُرية! قاتلك اللّه! ولا حيّاك، ولا رعاك، ولا سلّم عليك؛ والحمد للّه الذي أزال النعمة عنك، وهتك سترك، وأهانك بين الناس، أتذكرين، يا عدوّة اللّه، حين أتاك نساء بني العباس، يسألنك أن تكلمي أباك في الإذن في دفن إبراهيم ابن محمد، فوثبت عليهن، واسمعتهنّ أخشن الكلام، وأغلظ القول، وخرجن على الحالة التي علمتها؟

قالت زينب: فلما سمعت كلامي، ضحكت، فواللّه، ما أنسى حسن ثغرها، وعلوّ صوتها بالقهقهة،

ثم قالت:

أي بُنيَّة عمي، أي شيء أعجبك من حسنِ صنع اللّه بي حتى أردت أن تسيئي بي؟ لقد فعلتُ بنساء أهلك ما ذكرت، ولكن كان حقا على اللّه أن يسلمني إليك ذليلة جائعة، عريانة، شعثة، خاضعة؛ فكان هذا جزاءاً لشكرك اللّه ـ تعالى ـ على ما أولاك!!.

ثم قالت: سلام عليكنّ، وولّت خارجة.

قالت زينب: فالتفتّ إلى الخيزران، فإذا هي تبكي، ونادت الخيزران:

يا مُرَيَّة، دخلت بإذني، فلا تخرجي إلا بإذني، وصاحت بحجابها: ردوها، فرجعت.

وقالت: واللّه ما ساقني إليك إلا الضرورة، والجهد، وسوء الحال.

قالت: فنهضت الخيزران، فعانقتها.

فقالت: ما فيّ لذلك موضع، للحال الذي أنا عليه.

فقالت الخيزران لجواريها: عليكن بالحمّام بسرعة.

فعبروا بها إلى الحمام من وقتها، وأمرتهن بخدمتها، ثم وافتها الخلع المذهبة، والطيب، ثم قامت إليها الخيزران، واعتنقتها، وأجلستها المجلس الذي يجلس فيه أمير المؤمنين «المهدي»، وقدَّمت إليها الموائد الفاخرة، وجعلت تأكل، وتلقّمها، حتى اكتفت، وغسلت يديها.

فقالت لها الخيزران: هل هناك أحد ينتظرك؟

فقالت: ما لي أحد.

فقالت الخيزران: قومي إلى إحدى مقاصيري، فاختاري أحسنها، واسكني بها عندي، ولا تفترقي إلى الممات.

فقامت إلى المقصورات، وأقامت بأحسنها، وحُوِّل إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش، والقماش، والآنية، والخدم، ثم تركنها، وخرجن من عندها.

فقالت الخيزران: هذه امرأة قد مسَّها من الضُرِّ ما لا مزيد عليه، ولا يغسل صدأ قلبها إلا المال، احملوا إليها خمس مئة ألف درهم، فحملت إليها لوقتها.

ودخل المهدي عقيب ذلك، فقال:

ما بالكنَّ؟

فقامت إليه زينب، وأعلمته بجميع ما وقع، وما قالت لها حين دخلت عليها.

فغضب المهدي غضباً شديداً، وقال:

ما هذا سجودك لله على ما أنعم عليك، والله، لولا لك عليَّ حرمة لأحلفنّ أني ما أكلمك أبداً.

قالت: يا أمير المؤمنين، قد طاب قلبها، واعتذرتُ إليها، وفَعَلَت معها الخيزران كذا وكذا.

فسرّه ذلك، وقال:

احملوا إليها من عندي مئة ألف درهم.

وقال لخادم كان على رأسه: بلّغها مني السلام وقل لها:

إني ما سررت بشيء منذ عمري كسروري اليوم بمقامك عندنا، فلا تدعي في نفسك حاجة إلا ذكرتها لنا، ولولا [أني] أكبر من أن أحشمك لسرت إليك مسلّما عليك، وقاضياً لحقك.

فمضى الخادم بالرسالة إليها، فجاءت إلى «المهدي»، وسلّمت عليه، وقالت:

ما عليّ من أمير المؤمنين من حشمة، وإني صرت من بعض جواريه.

فقال: لا والله، بل أعزّ عندي من ولدي.

ولم تزل عند الخيزران حتى ماتت».

***

(٦) توخّي النّفع

لا أختار القصة فقط لصدقها، ولا لما ترمي إليه من موعظة أو عبرة، ولكن أحياناً أقتنصها لأنها ذات مدلول آخر، فقد تعطي فكرة عن فكر أهل الزمان الذي دوّنت فيه، وما يرونه لازما، أو يعدونه مناسباً، أو لأن فكرة رأوا طرافتها، وأحبوا أن يصطادوها، قبل أن تبهت في أذهانهم، أو تبدأ أجزاء منها في الغياب عن فكرهم، وكل قصة تحمل في ثناياها ما يمكن أن يستنطق فتأتي منه صورة ذات طابع متعين.

والقصة التي سوف أسوقها فيها خيال جامح، وهي بعيدة عن أن أجد أن أحداثها قد وقعت فعلا، ولكنها ملأى بالحكم، وأهم من ذلك السبك البديع الذي اختاره مؤلفها، والطريقة المبتكرة لقص قصة

تجبر من سمع مبتداها أن لا يتركها حتى يأتي إلى نهايتها.

وسيجد كُتَّاب القصص والنُّقاد أنها تستحق وقفة طويلة لأنها بنت ذاك الزمن، وبنت أفكار كُتَّابه وما يرون أنه يسيّر قصصهم وموعظتهم دون عوائق.

والقصة هي:

روى الشعبي وغيره أن ملكا من الملوك في الزمن الأول رأى رؤيا ونسيها، فقال لوزرائه:

رأيت رؤيا، فنسيتها، فما هي؟

قالوا: لا علم لنا بالرؤيا.

فقال: على ماذا أعدكم؟

قالوا: فأجِّلنا.

قال: قد أجلتكم.

فبينما هم يدورون إذا بامرأة قد خاصمت

زوجها، فقالت:

ما تطلبون؟

قال: فأخبروها.

فقالت: زوجي أعلم الناس بالرؤيا، وهو لا يخبركم بها حتى توهقوه (أي توثقوه برباط).

قال: فأخذوه.

فقالوا له: إن الملك رأى رؤيا ثم نسيها، فما هي؟

فقال: ما عبرت رؤيا قط، وما أدري.

قال: فلما وضعوا الوهق (الوهق حبل به أنشوطة)، قال:

إذهبوا بي إلى الملك حتى أخبره.

قالوا: امرأتك أعلم الناس بك.

قال: فلما دنا من الملك دخل خرابا.

قال: فجعل يبكي، ويقول:

يا نفس تُقتلين، يا نفس تموتين، يا نفس ما

علمك بالرؤيا!؟

قال: فخرجت عليه حيّة، فقالت:

يا شقيُّ، مالك؟

قال: فأخبرها، قالت:

فإن أنا أخبرتك بالرؤيا، أتجعل لي نصف ما يعطيك الملك؟

قال: نعم.

قالت: فإن الملك رأى إن السماء تُمطر ثعالب، فإذا ذكر، فقال: صدقت، فما تأويلها؟ فقل: زمن مكر.

قال: فجاء حتى دخل على الملك، فقال: إني رأيت رؤيا، فنسيتها، فما هي؟

قال: رأيت السماء تُمطر ثعالب.

قال: نعم، فما تأويلها؟

فقال: زمن مكر.

قال: أجيزوه، فلما قبض جائزته حاد عن الطريق، فلم يمرّ بالحيّة.

فلما كانت السنة الثانية رأى الملك رؤيا فنسيها، قال:

عليَّ بالرجل.

قال: فجاء حتى دخل الخراب، فبكى، فخرجت عليه الحيّة، فقالت:

يا غدّار: فقال:

هذه السنة أوفي معك، قالت:

إن الملك رأى أن السماء تمطر أسنّة حديد، فإذا قال لك ما تفسيرها؟ فقل زمن دماء.

قال: فجاء، فلما دخل على الملك، قال:

إني رأيت رؤيا، فنسيتها، فما هي؟

قال: رأيت أن السماء تمطر أسنّة من حديد.

قال: صدقت، فما تفسيرها؟

قال: زمن دماء، قال: فاحترس.

قال: ضعّفوا له الجائزة.

قال: فلما قبض جائزته جاء حتى دخل الخراب، وكان اتخذ معه حديدة ليشرخ بها الحيّة.

فقال: يا حيّة، يا حيّة.

قال: فخرجت، فأهوى بيده إليها، فرجعت، فأدمى ذنبها.

قال: فلما كانت السنة الثالثة رأى الملك رؤيا، فنسيها.

قال: عليّ بالرجل.

قال: فجاء فدخل الخراب، فأطال البكاء، فخرجت الحيّة، فقالت له:

يا خبيث، أردتَ قتلي.

فقال: هذه السنة أوفي لك.

فقالت: إن الملك رأى أن السماء تمطر بالحملان،

فإذا قال لك: ما تفسيرها؟ فقل زمن وفاء وخصب.

قال: فجاء، فلما دخل على الملك قال:

إني رأيت رؤيا، فنسيتها، فما هي؟

قال: رأيت أن السماء تمطر بالحملان.

قال: صدقت، فما تفسيرها.

قال: زمن وفاء وخصب.

قال: ضعِّفوا له الجائزة.

قال: فجاء حتى دخل على الحيَّة، فقال:

يا حيَّة، هذا كل شيء أعطانيه الملك هو لك.

قالت: لا، بل اقسمه نصفين.

قال: فلما قسمه، قالت: لا، خذه كله، لا حاجة لي فيه، لن ألومك في الغدر، كنت في زمن غدر، وإنما أنت بزمنك، ولن ألومك في الدم، كنت في زمن دم، وإنما أنت بزمنك، ولا أحمدك في الوفاء، فإنما أنت في زمن وفاء،

فانتقل بالمال كله».

يبدو أن القصة كلها أتي بها من أجل نهايتها، وفلسفة القاص لعلها ترمي إلى أن الناس أبناء زمانهم، وصورة منه، يكونون مثله، ويأتون طرحه ونتاجه.

وأنا أقرأ القصة شعرت أن الفن قد خالف الكاتب، لأن الحية، وهي من هي في الحذر، لم تمتنع عن إسداء النصح، ثم لم تتعظ بضربة الفأس على ذيلها، إلا أن الغاية عند الكاتب تبرر الاهتزاز في الوسيلة، والاضطراب البادي فيها.

والحيّة في الزمن القديم، وإلى الآن في بعض المجتمعات، تعد من الجان، وتصرفاتها مع الناس تأتي في ضوء ما هو معروف عن الجن من تصرف، فهي صدى لما تختزنه أذهانهم من صور عنها، والأدب العربي فيه قصص طريفة عن حيّات تصرفت

تصرف الناس، وساعدت وآذت، تبعاً لمجرى القصة والحكمة من الاتيان بها أصلاً، وبعضها فيه شعر، وفيه من الحكم ما يجعله يروى ويتداول، ويستشهد به في المواقف التي رمت إليه هذه الحكم.

وفي نظر الناقد الحديث أنه كان بالإمكان، تقليلا للانتقاد من مفكري اليوم، وعلى القواعد المقرة في زمننا، أن يقص الملك رؤياه، وأن يطلب من يفسرها، دون الحاجة إلى من يقرأ أفكار الملك التي نسيها، ويكون ذلك عن طريق حيّة تنطق، ولكن كل ذلك لم يكن، لأن فكر صاحب القصة غير فكرنا، ومراميه غير مرامينا، ومستمعيه غير مستمعينا، وأهمية الوقت عنده غير أهمية الوقت عندنا.

على أي حال، لقد جذبت أحد الكتّاب في القرن الثامن الهجري، فاختارها لتكون ضمن

كتاب ثمين أهداه لحاكم بلاده سلطان بني الأحمر الغني بالله محمد بن يوسف أبي الحجاج بن اسماعيل أبي الوليد بن نصر الأنصاري الخزرجي، ثامن ملوك دولة بني نصر ابن الأحمر في الأندلس[1].

ولعله من المناسب، وقد تحدّثنا عن الحيّة، واعتقاد بعض الناس أن بعضها من الجن، وأنها تقوم بأعمال الإنس، وتصرفاتهم، ويأتي على لسانها الشعر كما يأتي على ألسنتهم، أن نأتي بقصة تعطي صورة تمثل شيئاً من هذا الاعتقاد، وهي قصة جاءت في عدد من كتب التراث، وهذه هي القصة الطريفة.

«حكى القاضي يحيى بن أكثم ـ رحمة اللّه

(١) «مقالات الأدباء، ومناظرات النجباء»، لعلي بن عبدالرحمن بن هذيل الفزاري الغرناطي، تحقيق محمد أديب الجادر، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص: ٩٣.

عليه ـ قال:

دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد، ولد المهدي، وهو مطرق مفكر، فقال لي:

أتعرف قائل هذا البيت؟:

الخير أبقى وإن طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن لهذا البيت شأناً مع عُبيد بن الأبرص.

فقال: عليَّ بعبيد[1].

فلما حضر بين يديه قال له:

أخبرني عن قضية هذا البيت.

فقال: يا أمير المؤمنين، كنت في بعض السنين حاجّاً فلما توسطت البادية، في يوم شديد الحرّ،

(١) عبيد بن الأبرص، الشاعر المعروف، عاش في عصر الجاهلية، وقد وهم الراوي، أو الناسخ، وأبدل الاسم باسم، ولابد أن هارون الرشيد استدعى شاعراً إسلامياً معاصراً له، ليستفهم منه.

سمعت ضجة عظيمة في القافلة، ألحقت أولها بآخرها، فسألت عن القصة، فقال لي رجل من القوم:

تقدم تر ما بالناس.

فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا بشجاع (أفعى) أسود، فاغر فاه كالجذع، وهو يخور كما يخور الثور،ويرغو كرغاء البعير، فهالني أمره، وبقيت لا أهتدي إلى ما أصنع في أمره، فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً، فعلمت أنه لسبب، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت:

أفدي هذا العالم بنفسي، وأتقرب إلى اللّه ـ تعالى ـ بخلاص هذه القافلة من هذا، فأخذت قربة من الماء، فتقلدتها، وسللت سيفي، وتقدمت، فلما رآني قربت منه سكن، وبقيت متوقعا منه وثبة يبتلعني فيها؛ فلما رأى القربة فتح فاه، فجعلت فم القربة

فيه، وصببت الماء كما يصب في الإناء، فلما فرغت القربة تسيب في الرمل، ومضى؛ فتعجبت من تعرضه لنا، وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا منه.

ومضينا لحجنا، ثم عدنا في طريقنا ذلك، وحططنا في منزلنا ذلك، في ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء، وعدلت إلى ناحية عن الطريق، فقضيت حاجتي، ثم توضأت، وصليت، وجلست أذكر اللّه ـ تعالى ـ، فأخذتني عيني، فنمت مكاني، فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً، وقد ارتحلوا، وبقيت منفرداً، لم أر أحداً، ولم أهتد إلى ما أفعله، وأخذتني حيرة، وجعلت اضطرب، وإذا بصوت هاتف، أسمع صوته، ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخص المضلّ مركبه

ما عنده من ذي رشاد يصحبه

دونك هذا البكر منّا تركبه
وبكرك الميمون حقّاً تجنبه
حتى إذا ما الليل زال غيهبه
عند الصباح في الفلا تسيبه

فنظرت، فإذا أنا ببكر قائم عندي، وبكري إلي جانبي، فأنخته، وركبته، وجنبت بكري، فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر، ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولي، فتحولت إلى بكري، وقلت:

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب
ومن هموم تضل المدلج الهادي
ألا تخبرني بالله خالقنا
من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
وارجع حميداً فقد بلغتنا مننَاً
بوركت من ذي سنام رائح غادي

فالتفت البكر إليَّ، وهو يقول:

أنا الشجاع الذي ألفيتني رمضا
والله يكشف ضرّ الحائر الصادي
فجُدتَ بالماء لما ضنّ حامله
تكرماً منك لم تمنن بإنكاد
فالخير أبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبث ما أوعيت من زاد
هذا جزاؤك مني لا أمنّ به
فاذهب حميداً رعاك الخالق الهادي

فعجب الرشيد من قوله، وأمر بالقصة والأبيات، فكتبت عنه، وقال:

لا يضيع المعروف أين وضع»[1].

أما أن القصة محبَّرة، ومتخيلة فلا يختلف في

---

(1) «المستطرف في كل فن مستظرف» لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الإبشيهي، ١/ ٥١٨، الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، شرح وتحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

هذا اثنان، ولا نحتاج إلى أن نبين الوضع فهو واضح، بل ونشك أن القصة رويت للرشيد، ولو رويت له فلا نظنه يقبلها.

على أي حال هي مهمة لأنها تؤكد فكرة سهولة النحل، وقبول الناس له، لما فيه من طرافة وتسلية، ولأنه أسلوب تسامحوا تجاهه للحِكَمْ التي يحملها، والمواعظ التي يبثها، والتي تأتيَ في القصة، وكأنها ليست هي المقصودة، في حين أنها هي الهدف.

***

(٧) تَفَكُّــه الأُدَبَــاء

في الأديب قوة فائقة، كامنة في ذهنه، تُلح عليه أحياناً، وتطلب منه أن يعطيها متنفساً، وفرجة يطل عليها منها النور، لأنها تكاد تختنق في محبسها، فيستجيب الأديب بعد إلحاح، ويسن سن قلمه، ويجمع شتات فكره، فيلمح فكرة طريفة، فيطبق عليها إطباق الأعمى على حرز كاد أن يفلت منه.

والنماذج في هذا كثيرة، لا تكاد تُحصى، ووسيلة الأديب أن يبحث عن مشجب، فيعلقها عليه، ويوهم، وكثيراً ما ينجح، أن الفكرة الطريفة التي يأتي بها حادثة حقيقية، وأنه ما هو إلا راو أمين، في حين أن كل جملة منها تقول إنها طاقة مكبوتةٌ في ذهنه سمح لها بالخروج.

وقد تكون الفكرة طرأت على ذهنه بدءاً، أو قد

تكون أوحت بها فكرة تلمسها من بعيد أو قريب.

هذا القول لا يتضح اتضاحاً كاملاً إلا بالأمثلة التي سوف أسوق منها ما يكفي، لتبيان الصورة، ونشر الحقيقة.

من قراءة القصة الآتية تتبين الجوانب التي ذكرت، وهي مأخوذة من كتاب: «الأذكياء» للحافظ ابن الجوزي، ص: ١٠٣:

«قال رجل لهشام بن عمرو القوطي:

كم تعد؟

قال: من واحد إلى ألف ألف وأكثر.

قال: لم أرد هذا.

قال: فما أردت؟

قال: كم تعد من السن؟

قال: اثنين وثلاثين، ستة عشر من أعلى، وستة عشر من أسفل.

قال: لم أرد هذا.

قال: فما أردت؟

قال: كم لك من السنين؟

قال: ما لي منها شيء، كلها للّه عز وجل.

قال: فما سنّك؟

قال: عظم.

قال: فابن كم أنت؟

قال: ابن اثنين، أب وأم.

قال: فكم أتى عليك؟

قال: لو أتى عليَّ شيء لقتلني.

قال: فكيف أقول؟

قال: قل.. كم مضى من عمرك؟».

لا أحد يشك أن الأديب ينزه طيور فكره في هذا الأفق الواسع، تطير فيه كما يحلو لها، مادامت الفكرة قد وضحت، والخطة قد وضعت، والمعلومات

مخزونة، والخيال جامح.

ولا يكفي الأديب أن يُطيِّر طيور فكره في الفضاء، بل يذهب أحياناً بعيداً فيطلق أريام فكره، ويتركها ترعى في غابات من خياله، ولا يكفيه إلا أن يدخل بها بلاط الخلفاء.

وهذا أحد الأدباء، عنَّت له فكرة، فاختار باب معاوية ليطرقه، وليرسم على صفحة خلافته شيئاً مما أوحى به خياله إليه، فاستظرفه، وفرح بولادته، فألبسه هذا الرداء:

«بلغنا أن رجلاً جاء إلى حاجب معاوية، فقال له:

قل له: على الباب أخوك لأبيك وأمك.

فقال: ما أعرف هذا، ثم قال:

ائذن له.

فدخل، فقال له:

أي الإخوة أنت؟

فقال: ابن آم وحواء.

قال: يا غلام، أعطه درهماً.

فقال: تعطي أخاك لأبيك وأمك درهماً؟

فقال معاوية: لو أعطيت كل أخ لي من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا»[١].

ويبدو أن صاحب كتاب الأذكياء أراد أن يتنزه ويتفسح مع بعض الأدباء الذين ألّفوا هذه الطرائف، فأكثر منها في كتابه، وهذه واحدة تمثل افتعالاً أوحى به فكر في ساعة تجلٍّ وصفاء»[٢].

«وقف أعرابي على قوم، فسأل عن أسمائهم.

فقال أحدهم: اسمي وثيق.

وقال الآخر: منيع.

وقال الآخر: اسمي ثابت.

وقال الآخر: اسمي شديد.

---

(١) «كتاب الأذكياء»، للحافظ ابن الجوزي، ص (٢٠).

(٢) المصدر السابق، ص (٧٥).

فقال الأعرابي: ما أظن الأقفال عملت إلا من أسمائكم».

مساكين الأعراب، وجَدَهُم الحَضَر مشاجب قوية، فعلّقوا عليها فاكهة أفكارهم، الناضج منها، والذي لم ينضج، الحلو والمر، والحامض والمالح.

ولعل كثيرين منا يذكرون، منذ الصِّغَر، ونحن في المرحلة الابتدائية، قصة طريفة، صدّقنا حينئذ أنها وقعت، وأن الأشخاص قاموا بالدور الذي لَبسه كل واحد منهم، وأعجبنا بخطو هذه القصة، خطوة خطوة، ولكننا اليوم نقرؤها لا لنعتقد بذكاء أبي دُلامة، ولا بطول أناة المهدي وكرمه، ولكن بتقويم تفكير الكاتب، وتأليفه هذه القصة، التي كانت طيراً سانحاً في ذهنه، فاقتنصه.

والقصة أيضاً في «كتاب الأذكياء»[1]، وكان بالإمكان

---

(١) ص (٨٣).

أن أنوْع مصادري لهذه القصص، لأنها واردة في كتب كثيرة من كتب التراث، وليس بينها أحياناً إلا اختلاف طفيف، ربما يكون من قلّة عناء الناسخ، أو سهوه:

«دخل أبو دُلامة على المهدي، فأنشده قصيدة، فقال له:

سلني حاجتك؟

فقال: يا أمير المؤمنين، تهب لي كلباً.

فغضب وقال:

أقول لك: سلني حاجتك، فتقول:

تهب لي كلباً؟

فقال: يا أمير المؤمنين: الحاجة لي أم لك؟

قال: لا، بل لك.

قال: فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد.

فأمر له بكلب.

فقال: يا أمير المؤمنين هبني خرجت إلى الصيد، أأعدو على رجلي؟

فأمر له بدابة.

فقال: يا أمير المؤمنين: فمن يقوم عليها؟

فأمر له بغلام.

فقال: يا أمير المؤمنين، فهبني قصدت صيداً، وأتيت به المنزل، فمن يطبخه؟

فأمر له بجارية.

فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء أين يبيتون؟

فأمر له بدار.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد صيّرت في عنقي كفّاً (أي جمعاً من عيال)، فمن أين ما يتقوت به هؤلاء؟

قال: فإن أمير المؤمنين قد أقطعك ألف جريب عامراً، وألف جريب غامراً.

فقال: أما العامر فقد عرفته، فما الغامر؟

قال: الخراب الذي لا شيء فيه.

قال: ولكنني أسأل أمير المؤمنين من ألفي جريب جريباً واحداً عامراً.

قال: من أين؟

قال: من بيت المال.

فقال المهدي: حولوا المال، واعطوه جريباً.

فقال: يا أمير المؤمنين، إذا حولوا منه المال صار غامراً.

فضحك منه وأرضاه».

هذه قصة أبو دلامة (زيد بن الجون، الشاعر المطبوع، وهو يُعد من أهل الظرف والدعابة، وكان أسود اللون) مع المهدي، وبعض المراجع تختلف عما جاء بنهاية هذه القصة، فالمصادر الأخرى تقول ما معناه أنه قال: أنا أعطيك يا أمير من غير العامر ما لا نهاية له، أو ما هو في هذا المعني.

مادمنا في هذا الروض المزدهر من «كتاب الأذكياء»،[1] فلا أقل من أن تستقصي بعض أزاهيره، التي نقشها بفكره ويده، وهي نتاج أفكار نيّرة، تغري بالمتعة الفكرية:

«صحب طفيلي رجلاً في سفره، فقال له الرجل:

امض فاشتر لنا لحماً.

قال: لا واللّه ما أقدر.

فمضى، واشترى.

ثم قال له: قم فاطبخ.

قال: لا أحسن.

فطبخ الرجل.

ثم قال له: قم فاثرد.

قال: أنا واللّه كسلان[2].

فثرد الرجل.

---

(١) «كتاب الأذكياء»: ص (١٣٢).

(٢) كسلان تُستعمل أحياناً بمعنى متوعك الصحة.

ثم قال له: قم واغرف.

قال: أخشى أن ينقلب على ثيابي.

فغرف الرجل.

ثم قال له: الآن فكل.

قال الطفيلي: قد واللّه استحييت من كثرة خلافي لك، وتقدم فأكل..!».

الافتعال فيها واضح، والطرافة بيِّنة، والمتعة مضمونة، ولهذا أخَذَت حيّزاً من عدد من كتب الأدب.

القاص يحاول دائماً، ويجهد، أن يخفي مظاهر النحل، ما أمكنه ذلك، ولكن الحقيقة لابدّ أن ترفع رأسها فترى، والمُزَيَّفْ مهما حاول المُزِّيِّفْ أن يخفيه لابد أن يتخلله ما يفضحه، والقصة الآتية من «كتاب الأذكياء»[1]، فيها مثل هذه المحاولة، ولكننا نختار

(١) «كتاب الأذكياء»: ص (١٥٧).

وضعها مع مثيلاتها المؤلفات، في رفّ يليق بها، يقر لها بأنها متقنة، وأنها جميلة، وأنها مسلية، وأنها ممتعة، ولكنها ليست ابنة حادث وإنما ابنة الكاتب، جزاه اللّه خيراً على مدحه إبراهيم بن هرمة:

قال رجل من أهل الشام:

قدمت المدينة، فقصدت منزل إبراهيم بن هرمة، فإذا بُنَيَّةٌ له صغيرة تلعب بالطين، فقلت لها:

ما فعل أبوك؟

قالت: وفد إلى بعض الأجواد، فما لنا به علم منذ مدة.

فقلت: انحري لنا ناقة، فإنَّا أضيافك.

قالت: واللّه ما عندنا.

قلت: فشاة.

قالت: واللّه ما عندنا.

قلت: فدجاجة.

قالت: واللّه ما عندنا.

قلت: فبيضة.

قالت: واللّه ما عندنا.

قلت: فباطل ما قال أبوك:

كمْ ناقة، قد وجأت منْحَرَها

بمستهل الشؤبب، أو جمل

قالت: فذاك الفعل من أبي هو الذي أصارنا إلى أن ليس عندنا شيء».

الافتعال واضح، فطفلة تلعب بالطين تُسأل هذه الأسئلة، وتجيب هذه الأجوبة؟!

ثم هذا السُّلَّم المنحدر بانتظام من أعلى إلى أسفل، مع الحرص على اللحم، ينتهي ببيضة! والبيضة يغني عنها، مادامت ليست لحماً، الخبز!.

وكيف يجري الحديث في الشارع، خارج البيت، وكيف يأمر الضيف مضيفه بذبح ناقة، ولم يبين لنا

عدد الضيوف، والعادة يترك أمر ما يكفي للمضيف.

الذي أنقط الفكرة بكاملها في ذهن الكاتب هو البيت، فصاغ عليه ما صاغ، ولو جعل الحديث الممتع هذا مع خادم في البيت، بعد أن قُدّم «المتيسِّر»، فجاء الاعتراض من الضيف، لكان ذلك أكثر قبولاً، ولكن هذه أول صورة جاءت في ذهن الكاتب، وقانا اللّه شرَّ أول صورة، وأول فكرة، وأول خطة..!

ولا يكمل الحدث، ولا يبتسم، ما لم يبزّر بشيء من توابل صديقنا الأصمعي، الذي لا نشعر تجاهه، بعد الذي قرأناه عنه، إلا أنه من أسرتنا، معشر القراء، ونشعر أن بيننا وبينه ألفة، سواء كان هو مؤلف أحاديث الغرابة التي نراها في كتب الأدب، أو أن يكون هو مشجباً تنشر عليه هذه الأقاويل، جرأة أخوية أدبية، وثقةً بأن كتفيه قوية، وروحه متسامحة، وما يقال لا يخرج عما يقبله، ولو

جاء طائره أمام فكره لصاده، فصاده نيابة عنه المعجبون به، الناحلون عليه، الداعون اللّه بأن تعمى الأبصار عن زيف ما يضعون، وألاّ يُحرموا من متعة لهم حاضرة، وأجر عند اللّه على حُسن نيتهم، وعفّة ما يقولون، أما غير العفيف فهو منبوذ، نحن والأصمعي ندعو على من حشره، بدءاً، أو زيادة، على قائم موجود.

والقصّة من «كتاب الأذكياء»[1]:

«قال الأصمعي:

بينا أنا في بعض البوادي، إذا بصبي معه قربة قد غلبته، فيها ماء، وهو ينادي:

يا أبت أدرك فاها، غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها.

قال: فواللّه لقد جمع العربية في ثلاث».

جمع الأصمعي في هذه القصة درساً نحوياً

---

(١) ص: (١٥٧).

كاملاً عن نصب كلمة «فو»، ورفعها، وجرها، وهو درس مهم في النحو، وليس سهلاً. وأمعن واضع القصة في الضحك علينا بأن جعلها على لسان صبي، وأخفى مكان المسرح، فلم يعلمنا أين هذه البادية.

والنمط السفسطائي في الجدل محبب عند الأدباء، لأن فيه متعة للفكر، وبهجة للنفس، ويؤتى به متقناً، وعلى لسان من يُقبل قوله، مثل القضاة، وهناك قول في «كتاب الأذكياء»[1]، فيه ما يمثّل هذا:

«قال اسماعيل بن حمادة بن أبي حنيفة:

ما ورد عليَّ مثل امرأة تقدمت، فقالت:

أيها القاضي، ابن عمي زوّجني من هذا، ولم أعلم، فلما علمت رددت.

فقلت لها: ومتى رددت؟

قالت: وقت ما علمت.

---

(١) ص: (١٦٣).

قلت: ومتى علمت؟

قالت: وقت ما رددت.

فما رأيت مثلها».

والقصة هذه ليست في صالح القاضي، وابن أبي حنيفة لو سمعها لأنكرها.

وتفكه الأدباء، أو الموتورين، أو الذين إذا نعق ناعق نعقوا معه، لا يقف عند حد، ويجد أصحاب ذلك مادة دسمة في الأمور السياسية، والأشخاص الذين تدور حولهم أقوال بالحق أو الباطل، فيؤلفون عليهم القصص، ويتفننون في ذلك، ولكن يبقى خيط رفيع، غير ظاهر لكل القراء، يدل على أن منطلقها واحد، وهدفها واحد، ونهجها واحد، وأسلوبها واحد.

والقصة الآتية تمثل شيئاً من هذا، وهي من: «كتاب الأذكياء»[1]، وهي عن الحجاج، وتُعبر عن نفسها،

---

(١) ص: (٩٩).

وتصرخ حوادثها بأنها لم تقع، وتعلن أنها مؤلّفة، مثل كثير غيرها:

«رُوي أن الحجاج قال لغلام له:

تعال، نتنكّر، وننظر ما لنا عند الناس، فتنكرا، وخرجا، فمرّا على المطّلب، غلام أبي لهب.

فقالا: يا هذا، أي شيء على الحجاج؟

قال: على الحجاج لعنة اللّه.

قالا: فمتى يخرج؟

قال: أخرج اللّه روحه من بين جنبيه، ما يدريني؟

قال: أتعرفني؟

قال: لا.

قال: أنا الحجاج بن يوسف.

قال المطلب: أتعرفني أنت؟

قال: لا.

قال: أنا المطلب، غلام أبي لهب، أصرع في كل

شهر ثلاثة أيام، أولها اليوم، فتركه ومضى».

وهذه تشبه ما ورد في كتاب: «الهفوات النادرة، لمحمد الصابي، ص١٠١»[1]، وفيها بعض الاختلاف، وإن كان مجرى الحديث واحداً، وفي قصة «الهفوات»، قيل إن الحجاج انفرد عن عسكره في سواد واسط، وأنه سأل بستانياً، ودار بينهما حديث طويل فيه شتم للحجاج، وسمي الرجل الشاتم أبو ثور، وقيل إنه يُصرع، وأنه أزبد وأرغى، وهاج وعدا، وأراد أن يضرب رأسه، وأن الحجاج ضحك منه ومضى».

ونعود لتفكه أحد الكتّاب، وصياغته ملحة فكرية، أخذ يمرح حراً في ربوعها، وقد جاءت على نسق بعض ما يقال بوحي من فكرة طارئة، استغلها الكاتب فنظمها في هذا العقد، وهي من كتاب: «الهفوات النادرة»[2]:

---

(١) الهفوات النادرة، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
(٢) المصدر السابق ص: (٢٧٦).

قيل لرجل: بكم تبيع شاتك؟

قال: اشتريها بخمسة؟

وهي خير من ستة.

وقد رأيت دونها بسبعة.

وقد أعطيت بها ثمانية.

وفي نفسي أني لا أبيعها بتسعة.

ولكن لا أنقصها عن عشرة.

فمن وزن لي أحد عشر، وإلا لم أبعها.

.. والسلام».

وهكذا تمت الفسحة الفكرية الحسابية التجارية الاقتصادية.

وتفكه أحد الأدباء، وما جاء به من نحل واضح المعالم، بيِّن الهدف، طريف العرض، قصة جاء بها الجاحظ في «البيان والتبيين»[1]:

---

(١) ص: (١٠٥).

«قال أبو عمرو: خرج صعصعة بن صوحان، عائداً إلى مكة، فلقيه رجل، فقال له:

يا عبدالله، كيف ترى الأرض؟

قال: عريضة أريضة.

قال: إنما عنيت السماء.

قال: فوق البشر، ومدى البصر.

قال: سبحان الله! إنما أردت السحب.

قال: تحت الخضراء، وفوق الغبراء.

قال: إنما أعني المطر.

قال: قد عفّى الأثر، وملأ التتر، وبلّ الوبر، ومُطرنا أحيا المطر.

قال: إنسيّ أنت أم جنّي؟

قال: بل إنسيٌّ من أمّة رجل مهدي ﷺ».

في القصتين التي تجادل فيها الحجاج مع الأعرابي، وهذه التي بين صعصعة بن صوحان مع الأعرابي،

يتأكد ما قلناه في صلب الكتاب من النحت للأغراض التي ذكرناها.

وما جاء هنا ما هو إلا نماذج قليلة من كثير مثلها، اخترناها لنعطي فكرة عن هذا الجانب في فكر الأدباء والكتّاب والمؤلفين، وما مرّ بخاطرهم وذهنهم، ومن هذه النظرات يكاد كل ما في التراث والأدب والتاريخ يحتاج إلى فحص دقيق، ونقد مجرد، ومقارنة متقنة، ووزن بمعايير مقبولة، ليمكن الاعتماد على ما يصفو من هذا كله، بعد النخل والتنقية، وما أصعب الأمر.

ونكتفي بهذا توضيحاً للمنهج الذي ذكرناه، مما احتوت عليه النصوص، مما جاء مقبولاً، أو مرفوضاً، أو في البرزخ بينهما.

والله ولي التوفيق..

***

(٨) وصف مزول

يعتاد الإنسان، وهو مع أنداده، أن لا يتحفظ في الكلام، فيرمي القول على هوانه، فإذا جاء غير مستقيم، فإن الزَّلَّة لا تكلف كثيراً، والقيام من السقطة سهل، ولتعوّد اللسان على هذا يقع الإنسان في حرج إذا ما أَصبح في مجتمع مختلف، مجتمع يحتاج إلى اختيار الكلمات، واختبار المعاني قبل إلقائها، وإلى حدس رد الفعل فيما يقال، وتهذيبه وتشذيبه قبل أن ينطق به.

وبعض الناس عنده سرعة بديهة، وسقطه غير متوقع، وبعضهم خلاف ذلك لما ذكرناه من اعتياده على مثل هذا، وعدو المرء أول فكرة تأتي فيلقيها بسرعة، ولو تأنّى لوجد أن غيرها أفضل منها، وأن

السكوت خير له.

وبالقصة الآتية عدة هفوات، لا لعاً لعاثرها!

وقد اختارها أبو الحسن الصابي، لتكون من بين الهفوات التي جمعها في كتاب أسماه: «الهفوات النادرة»[1] وقصتنا تأتي هكذا:

«حُكي أن أبا عبدالله بن الجصاص كان جالساً، يحدِّث المقتدر بالله، فنام.

فقال له المقتدر: هو ذا تنام يا أبا عبدالله!

فقال: تحت داري كلاب ما يدَعُوني أنام الليل.

فقال له: تقدَّم إلى الغلمان بطردهم!.

فقال: يا أمير المؤمنين، هم شيء يطاقون؟!، والله إن كل كلب مثلي ومثلك مرتين!!.

فضحك المقتدر، وقال:

بل مثلك وحدك!.

---

(١) ص: (٥٥).

واستيقظ ابن الجصاص من غفلته، فخجل واعتذر!».

وعلى هذه الجادة أخطأ جرير عندما مدح عبدالملك ابن مروان، وأعماه مطلع القصيدة الجميل، والوزن الراقص، والقافية المواتية، ولم يتنبه إلى خطل الأسلوب ومرماه، وأنه لا يليق أن يخاطب الخلفاء بهذا وأمثاله، خاصة وأن جريراً كان في تلك اللحظة على المحك، ولم يتم قبوله، والقصة كالآتي، وهي في كتاب: «الهفوات النادرة»[1]:

«أنشد جرير لعبدالملك بن مروان، بعد أن أقام دهراً على بابه، وتسأله قيس، وتشفع فيه، وهو لا يجيب إلى سماع شعره، ومدحه.

ثم أذن في ذلك، فابتدأ، وأنشد:

أتصحو أم فؤادك غير صاح

عشيَّة همَّ صحبك بالرَّواح

(١) ص: (١١٨).

فقال عبدالملك: بل فؤادك يابن اللخناء!.

فحصر جرير، واغتمّ كيف اتفق له مثل ذلك، بعد امتناعه من سماع إنشاده».

وعلى نمط القصة الأولى، وتأثير الجلوس مع السوقة، مما يؤدي إلى نقل طريقتهم في التخاطب إلى بلاط الحكام والسلاطين والخلفاء وكبار القوم، القصة الآتية، وهي في كتاب: «مقالات الأدباء ومناظرات النجباء»[1]:

«حضر أعرابي سفرة سليمان بن عبدالملك، فلما أُتي بالفالوذج، جعل يُسرع فيه، فقال سليمان:

أتدري ما تأكل، يا أعرابي؟

قال: بلى، يا أمير المؤمنين، إني لأجد بريقاً هيِّناً، ومزدرداً ليّناً، وأظنه الصراط المستقيم، الذي ذكره اللّه ـ تعالى ـ في كتابه:

قال: فضحك سليمان، وقال:

---

(١) ص: (١٧٠).

أزيدك منه، يا أعرابي، فإنهم يزعمون أنه يزيد في الدماغ.

قال: كذبوك، يا أمير المؤمنين، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل».

لعل هذه الزلة الكبرى جاءته عقاباً في الدنيا عن تشبيهه «الفالوذج» بالصراط المستقيم، فإن لم يكن هذا الأعرابي قد قاله، لأن القصة كلها قد تكون مفتعلة، للتظرف، والملاحة، فلينتظر مؤلفها عقابه إن لم يغفر اللّه له، هذا إن لم يكن عاقَبَه في الدنيا، نسأل اللّه السلامة من اتخاذ القرآن والسنّة مجالاً للضحك والتسلية.

ومجالسة الملوك، أو محادثتهم، تقتضي أن يكونوا على جانب من الثقافة عميق، إذا أرادوا أن يظهروا شيئاً مما اكتسبوه من العلم، لأن العلم الضحل قد يأتي بما يضر أكثر مما ينفع، والأفضل للمرء أن يكون

حذراً، فلا يقول إلا ما هو متأكد من مدلوله، عارف بمراميه، مدرك لما يؤمل منه.

وهناك قصة تبين موقفاً من هذه المواقف التي أراد صاحبها أن يحسن فأساء، وأراد أن يكسب فخسر، ووقع في موقف لا يحسد عليه، هو في غني عنه.

والقصة من «كتاب الأذكياء» لعبدالرحمن بن الجوزي، ص (٤٢)[١]:

«حكى السلامي الشاعر، قال:

دخلت على عضد الدولة، فمدحته، فأجزل عطيتي، من الثياب والدنانير، وبين يديه جام خسرواني، فرآني ألحظه، فرمى به إليَّ، وقال: خذه.

فقلت: وكل خير عندنا من عنده.

فقال عضد الدولة: ذاك أبوك.

(١) مركز سندباد للترجمة والنشر والتوزيع، دار ابن حزم، بيروت، والقصة أيضاً في كتاب: «الهفوات النادرة»، ص (١٤٧).

فبقيت متحيّراً، لا أدري ما أراد، فجئت أستاذي، فشرحت له الحال، فقال:

ويحك، قد أخطأت عظيمة [كذا]، لأن هذه الكلمة لأبي نواس، يصف كلباً حيث يقول:

أنعت كلباً أهله في كده
قد سعدت جدودهم بجده
وكل خير عندنا(١) من عنده

قال: فعدت متوشحاً بكساء، فوقفت بين يدي عضد الدولة، فقال:

ما بك؟

فقلت: حُممت الساعة.

فقال: هل تعرف سبب حُمّاك؟

قلت: نظرت في ديوان أبي نواس.

قال: لا تخف، لا بأس عليك من هذه الحمّى.

فشكرته، وانصرفت».

---

(١) لعلها: «من عندهم».

وهذا شاعر، فكيف غاب عنه مثل هذا، وأبونواس شاعر معروف، وشعره مطلوب ومتداول، ولكن ليس كل شاعر عنده الفطنة والذكاء، وسعة الاطلاع، وبهجة القول أحياناً تعميه عما فيها من خلل، وما قد يكون تحت ردائها من شائبة، وقد لا يتنبه المتكلم، أو الشاعر إلى الخلل الذي جاء في قوله إلا بعد أن يُنبَّه، فيصحو من غفوته، ويستيقظ من نومته، فيدرك ما وقع فيه من خطأ، ويصحح فكره عما كان يظنه حسنا وهو القُبح بعينه، وهناك شاعر وقع في موقف مثل هذا، وسارع إلى اتهام الممدوح أنه لا يفهم الشعر بعمق، فنبهه صديقه إلى الخطأ الجسيم الذي أعماه اللّه عن أن يراه في شعره، فأدرك حينئذ أنه عثر عثرة قد لا ينهض منها، والقصة وردت في: «كتاب الأذكياء»[1]:

---

(١) ص: (٣١).

وهذه هي القصة:

«قال عمارة بن عقيل: قال لي ابن أبي حفصة الشاعر:

أعلمت أن أمير المؤمنين - يعني المأمون - لا يُبصر الشعر؟

فقلت: من ذا أفرس منه، وإنّا لننشد أول البيت فيسبق إلي آخره، من غير أن يكون سمعه.

قال: فإني أنشدته بيتاً أجدتُ فيه، فلم أره تحرك له، وهذا البيت فاسمعه:

أضحى إمام الهدى المأمون منشغلاً

بالدين، والناس بالدنيا مشاغيل

فقلت له: ما زدته على أن جعلته عجوزاً في محرابها، في يدها مسبحة، فمن يقوم بأمر الدنيا إذا كان مشغولاً عنها؟ وهو المطوّق لها، ألا قلت كما قال عمك جرير لعبدالعزيز بن الوليد:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه

ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله»

ويمكن أن تقارن هذه الهفوات بأضدادها من الأذكياء الذين يعرفون آداب مجالسة الملوك، وما يحسن أن يقال، وما يجب أن يتجنب، ويروى في هذا المجال أمور كثيرة ظهر فيها صفاء تفكير أصحابها، وتحرّيهم ما يناسب المقام، ومن ذلك القصة الآتية، وهي من «كتاب الأذكياء»[1]:

«رُوي عن الرشيد أنه رأى يوماً في داره حزمة خيزران، فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟

فقال: عروق الرِّماح، يا أمير المؤمنين..

ولم يرد أن يقول: «الخيزران» لموافقته اسم أم الرشيد».

وهذا الفضل وزير مجرب، وذكي لماح، ويتبين

(١) ص: (٣٥).

ذلك من فعله هذا، ومن بعض أقواله التي ينصح بها الشادين، ومن أقواله في «كتاب الأذكياء»[(١)]:

«إياكم ومخاطبة الملوك بما يقتضي الجواب، فإنهم إن أجابوكم شقّ عليهم، وإن لم يجيبوكم شقّ عليكم».

والخلفاء يجتهدون عادة في اختيار مؤدبي أولادهم، ويحصلون على نتائج تدل على أن جهدهم لم يضع سُدى، فيأتي ابن الخليفة عالماً، مؤدباً، ذكياً لمّاحاً.

وهذه قصة تدل على نباهة مؤدب ابن أحد الخلفاء، ممن يعرف بلاط الخلفاء، والأدب الذي يجب أن يراعى في المخاطبة، وفي التصرف، والقصة في «كتاب الأذكياء»[(٢)]:

قال ابن عرابة المؤدب:

حكى لي محمد بن عمر الضبّي أنه حفّظ ابن

(١) ص: (٣٦). (٢) ص: (١٠١).

المعتز، وهو يؤدبه سورة: «والنازعات»، وقال له:

إذا سألك أمير المؤمنين، أبوك، في أي شيء أنت؟

فقل له:

في السورة التي تلي: «عبس»، ولا تقل أنا في «النازعات».

فسأله أبوه: في أي شيء أنت؟

قال: في السورة التي تلي «عبس».

فقال: من علَّمك هذا؟

قال: مؤدبي.

فأمر له بعشرة آلاف درهم».

هذه قصة عن العصر العباسي، وسبقها قصة في العهد الأموي، فيها إضاءة باهرة، إن صحت نسبتها إلى من نسبت إليه:

«قال معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد، وقد أتت عليه سبع سنين:

يا بني: في أي سورة أنت؟

فقال: في السورة التي تلي:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ يا أمير المؤمنين.

فقال معاوية: يا بُني، إن هذه السورة تليها سورتان، وهي بينهما، ففي أيهما أنت؟

قال: في السورة التي أولها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

فتمثّل معاوية بقول حذافة بن غانم بن عدي بن كعب العدوي حيث قال:

ملوك وأبناء الملوك وسادة

تفلق عنهم بيضة الطائر الصقر

متى تلق منهم ناشئا في شبابه
تجده على أعراق والده يجري
فهم يغفرون الذنب ينقم مثله
وهم تركوا رأي السفاهة والهجر»[1]

ولو اكتفى الراوي أو الناحل عند الجزء الأول لأمكن قبولها بأنها حدثت فعلاً كما رويت، إلا أن الزيادة أعطبتها، بما ليس فيه مستدرك، فجواب يزيد واف للرد على سؤال معاوية، لأن ما يلي سورة «الفتح» التي منها الآية الأولى، هي سورة «محمد»، ولا داعي لأن يسأل معاوية سؤالاً آخر بأنها تقع بين سورتين، لأن إجابة يزيد لم يأت هذا فيها، ولكن مؤلف الزيادة أراد أن يؤكد فرط ذكاء يزيد، ابن سبع السنوات، فأتى بالآية الثانية من سورة «محمد»، وتفادى الآية الأولى، لأن فيها ذكر الكفار، وذكر

(١) «أنباء نجباء الأبناء» لمحمد بن أبي محمد بن ظفر، مراجعة وتعليق الفريق يحيى المعلمي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

الذين صدّوا عن سبيل اللّه، وما وقع بهم من اللّه:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾

[سورة محمد الآية: (١)].

والكُتَّاب، لعلمهم وتجربتهم، يكتبون في دواوين الحكام بحذر، ويمشون كمن يمشي على الشوك فيما يكتبون، لأنهم إن زلّوا، قريبون من التعنيف أو العقاب، وهم يدعون أحياناً ويستكتبون في وقت قد لا يكونون مستعدين للكتابة الرصينة، لا ذهنيا ولا جسميا، ولهذا فهم حذرون، ويحرصون على أن يكون ما يكتبون غير مرذول، وهناك قصة من كتاب «الهفوات النادرة»(١)، تري مدى الحرص في التعبير، والاستفادة من التجربة، وما يمكن أن تتركه من ندوب في النفس، وعُقَد نحو العمل.

قال أبو محمد بن فهد:

---

(١) «الهفوات النادرة» ص: (١٢٩) لمحمد بن هلال الصابي، (دار الشروق)، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

رأيت أبا الحسن علي بن عمرو الموصلي يكتب إلى أبي تغلب ابن ناصر الدولة كتاباً، فكتب في موضع منه: «أمور حميدة»:

فقلت: «أمور جميلة».

قال: صدقت، ولكن كتبتُ، وأنا بالموصل إلى أبي تغلب رقعة فيها: «أمور جميلة»، ووصلت الرقعة إليه وهو عند أخته جميلة، وكانت غالية عليه، محتوية على أمره، لا يقطع شيئاً دونها، فعرضها عليها، وأخذ فيما تضمنته رأيها، فأنكرتْ عليَّ قولي: «جميلة»، إنكاراً شديداً، لأنه اسمها.

وبلغني، فاعتذرت أعظم الاعتذار، وما كتبت إلى أحد بعدها: «جميلة»، وصارت لي عادة».

وبضدها تتميز الأشياء، ففي هذه القصة حرص الكاتب على أن يتفادى ما يجرح شعور إنسان آخر، وفي القصة القصيرة الآتية هفوة كبرى، وقع فيها

صاحبها، لأنه سوقي، قد تعوَّد على مثل هذه الأقوال مع جلسائه، ولم تستبد بدمه أخلاق مجالسة علْيَة القوم، وهذه هي القصة من كتاب: «الهفوات النادرة»[1]:

«أراد ابن الجصاص (رجل معروف بالحمق والغفلة) تقبيل رأس الخاقاني الوزير.

فقال له مازحاً معه: لا تقبِّل، ففي رأسي دهن!.

فقال: والله لو كان في رأس الوزير (...) لقبَّلته».

وصدق المثل الذي يقول: كم من كلمة قالت لصاحبها: دعني، وأحسن صاحب كتاب «الهفوات النادرة»[2]، حينما جاء بالهفوة الآتية، فهي هفوة كلفت العاثر ثمناً باهظاً، وهذه هي القصة:

«طلب المكتفي يوماً من أبي عبدالله بن الجصّاص عقداً حسناً، من فاخر الجوهر، ليبتاعه منه.

فقال: كم يبلغ، يا أمير المؤمنين[3]؟

---

(١) ص: (١٢٨). (٢) ص: (١٣٨).

(٣) أي ما هو المبلغ الذي تقدّره للعقد الذي تريده.

قال: ثلاثين ألف دينار.

قال: لا تصيب ما تريد إذاً، ولكن عندي عقد فيه ستون حبه، ولا أبيعك إياه بأقل من ستين ألف دينار، فإن بلغتَ حملته إليك.

فقال: افعل.

فحمله إليه، والعباس بن الحسن الوزير قائم بين يديه، فعرضه عليه، فهال المكتفي أمره، وحُسْنه.

قال: ما رأيت قط مثل هذا؟!

فقال له ابن الحصاص: ومن أين عندك أنت مثل هذا، يا «أبا مشكاحل».

فتنكّر المكتفي، وتنمّر، وأومأ إلى ابن الجصاص بالإمساك، والانصراف، ففعل.

وقال المكتفي للعباس، باللّه، وبحقي عليك[1]،

---

(١) أحسن المحقق عندما علّق على هذا الحلف بغير اللّه، فقال: هذا من أنواع الحلف الذي لا يجوز، وقد حذّر منه المصطفى ﷺ بقوله: (لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف باللّه)، وقوله ﷺ: «من حلف بغير اللّه فقد أشرك».

هذه الكنية تُلقبني بها العامة؟

قال: لا واللّه يا مولاي، ولكن هذا رجل رقيع، عامي، جاهل، والعامة إذا افتخرت على إنسان قالت له: «يا أبا مشكاحل».

وقد ربحتَ، يا أمير المؤمنين بهذه الكلمة العقد بلا ثمن، فدعني وابنَ الجصاص، فتنمَّرْ له، وأَحِلْه عليَّ.

فلما كان بعد أيام جاء ابن الجصاص، فأذكر المكتفي بثمن العقد، فازورّ عنه.

وقال له: إلق العباس.

فجاء إليه يطالبه بالمال.

فقال له: ويحك! تطالب بثمن العقد للخليفة، بعد أن لقيته بما لقيته، وخاطبته في معناه بما خاطبته، واجترأت عليه، وأخطأت بين يديه بما لا يجوز أن يُتَفَوَّه به! ولولا أنه ينسبك إلى العامية، والتجارة،

والجهل، والحمق، لضرب رقبتك!، إمسك عنه، ولا تتكلم في معناه بحرف؛ فأمسك، وذهب العقد بتلك الكلمة».

ومن الهفوات المؤذية لصاحبها، وهي كلمة لم يفكر قائلها في مرماها، ولا فيمن قيلت له وعنه، والقائل أحد العمال، موظف عند الوزير الذي يخاطبه، ولكنه نسي أنه يخاطب وزيراً، وظن أن الذي أمامه أحد زملائه، ومن هو في مستواه، وممن اعتاد أن يخاطبه بهذا الخطاب العاميّ السوقي، وهي من كتاب: «الهفوات النادرة»[(١)]:

«خاطب الوزير أبو القاسم بن المغربي بعض العمال، واحتدّ عليه.

وقال: لأتقدمنّ بصفعك.

فقال: بل نترك العمالة، ولا تصفعنا ولا

(١) ص: (١٥٥).

نصفعك.

فأطرق المغربي، وترك الكلام.

وعرف الرجل غلطه، فبقي ميتاً[1]، ثم خرج متحاملاً».

***

(١) أي: جمد الدم في عروقه من الهلع.

(٩) من وحي الصحراء

هناك قصص كثيرة في الأدب العربي، تصف انفراد خليفة أو أمير، أو قائد، عن أتباعه في الصحراء، وهم في رحلة قنص، أو في طرقهم إلى الحج، أو في ذهابهم إلى النزهة، وتزاحم الصحراء بعض الواحات، أو البساتين، المهم في الأمر إفراد الراوي الشخص المرادَ تركيب القصة عليه، وهي قصة في العادة مبتكرة الفكرة، طريفة المظهر، ملفتة للنظر، لما فيها من أمر عجيب.

وغالباً ما يكون هناك إبهام حيال بعض أشخاص القصة، أو غمغمة، أو ادعاء، مما يؤكد للناقد صحة حدسه، في أنها مؤلفة، ولم تحدث في الحقيقة، ولكن فيها من المتعة ما جعلها تصارع عوادي الزمن، ومرور

السنين، دون أن تفقد طلاء البهجة، الموشَّى، أحياناً، بالأقوال الحكيمة أو الأشعار الفصيحة، أو المنحنيات المفاجئة، مع محاولة يائسة في التعمية على القارئ في أنها مؤلفة، والتأكيد أنها أصلية، عن طريق، لا معنى لها، من الرواة.

ويكاد يكون لكل قصة من هذه القصص هدف، ومن القصة، وفحصها جيداً، يتبين بوضوح هذا الهدف، وهذه قصة من هذا القبيل، أوردها صاحب كتاب «الهفوات النادرة»[(١)]:

«خرج أبو العباس السفاح ذات يوم، بعد فراغ مدينته التي بالأنبار، متنزهاً نحو الخورنق، في بعض أيام الربيع، ومعه جماعة عمومته، وسائر مواليه، وخاصته، فدعا بغدائه، فبينما هم على طعامهم، وانبساطهم، وأُنْسهم، إذ طلع عليهم أعرابي، فوقف

(١) ص: (٩٨).

بإزائهم، وأشار بالسلام.

فأومأ إليه أبو العباس، فدنا، فلم يزل يدنيه، حتى قرب منه، وأمر بغسل يده، فغسلت، وأحضره الطعام، فأكل أكل نهم، إلى أن انتهى.

ثم أقبل على السفاح، فقال:

بأبي أنت وأمي، ما أحسن وجهك، وأكرم فعلك، انتسب لي أعرفك، فتبسم، وقال:

رجل من اليمن، ثم من بني عبدالمدان!

فقال: شريف، ولكني أشرف منه!

فقال السفاح: فانتسب لي أعرفك.

فقال: أنا رجل من قيس عيلان، ثم من بني عامر ابن صعصعة!

فقال السفاح: أنت لعمري شريف، ولكني أشرف منك!.

فقال: لا، ورب الكعبة، ما بنو الحارث بن

كعب بأشرف من بني عامر، إلا أن تكون عارضتني في نسبك!.

فقال له: ما عارضتك، وإنهم لأحد طرفيّ.

فقال له: فعرفني، بأبي أنت وأمي، الطرف الآخر لأثبتك!.

قال: رجلٍ من بني هاشم!.

قال: بَخ بَخ، رهط رسول اللّه ﷺ فما قرابة بينك وبين هذا الملك.

قال: قرابة قريبة!.

قال: بأبي أنت، هو الشَّرَويّ الحميميّ.

قال: نعم هو.. هو.

قال: يا بنيٍ اكتم عليَّ حديثاً أحدثك عنه!.

قال: أفعلُ، فقل منبسطاً، فلا عين عليك.

قال: بأبي أنت، لقد رأيته، وهو غلام يَفَعَة، يرمي في غرض بالحميمة، فيجمع في كنانته بعض

سهامه، ثم يرمي الطائر، فيصيبه، فيقربه إلى نار بالقرب منه، فحين يظن أن النار قد عملت فيه يبادر فيخرجه، خوفاً أن يغلبه أحد عليه، حتى ينهشه، فيأتي عليه مع لحمه وفحمه، لا يشركه فيه عشير ولا أجير.

فصاح به داوود بن علي، عمّ السفاح: اسكت فضّ اللّه فاك، وأسْكَتَ نأمتكَ، أتدري من تخاطب، إنما تخاطب أمير المؤمنين.

فقال السفاح: مَهْ يا عمّ، ما هذه المعاشرة الفظة؟ رجل تكلم على الأنس والانبساط، مأذون له، مستدعىً ذلك منه، بعد أن تحرّم بنا، أرعبْته وأزعجته، وقطعته عن حديثه.

ثم أقبل على الأعرابي فقال:

تكلم، عافاك اللّه!.

فلما سمع الأعرابي ما كان من داود بن علي، ثاب إليه عقله، وأدركه ذهنه، واستيقظ من غفلته،

وانتبه لهفوته.

فقال له: لقد كنت أرى في هذا الملك أمارات الخير، ودلائل العلو، وأنه سيملك ما بين لابتيها.

فضحك السفاح، وقال له:

وما تلك الدلائل؟

بُعد الهمّة، وشرف الطبيعة، ولين الجانب، وبذل النائل، والصفح عن الجاهل - يعني نفسه - مع مُرَكبه الكريم، ومحتده الشريف العظيم، وموضعه من النبوّة.

فازداد تعجُب السفاح من فصاحته، وحسن بيانه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، وكساه، وحمله.

ثم قال: يا أخا بني عامر، إن كنتَ رأيتَ ما رأيتَ، إذ ذاك، فكان يومئذ الموجود، وهذا أوان الجود».

لقد أتقن مؤلف القصة القول، وأحسن السبك، وأبرز ملامح المدح، وأحسن سير القول، كلمة كلمة،

وجملة جملة، وخطوة خطوة، حتى مُداخلة داوود كانت في محلها، لتقرب القصة من نهايتها، بعد أن أُوضحت فيها الرسالة، ووصلت إلى الهدف.

لقد بيّنت الفرق بين السفاح وعمه داوود، هذا ضيّق الصدر، والسفاح واسعه، هذا خشن في تعامله، والسفاح، لخلقه المتميز، ليّن في محادثته للأعرابي، ولاشك أن كاتب القصة أديب ضليع في الأنساب، بليغ في اللغة، أديب بارز، لقد نصب المسرح، وأحسن وضع الممثلين، ثم حركهم كما أراد، للوصول إلى الهدف، لقد كانت تمثيليته متحركة، ممتعة، جميلة، شدّت النَّظَّارَةَ، وسرّت القارئ على مرّ العصور، وما يخونها إلا مواقع ضعف فيها، لا يدركها إلا المتأني المتبصّر، العارف بمداخل النحل وخوارجه.

وأوائل النوابي في هذه القصة: الصدفة، وهي أول آفات النحل، فالسفاح في نزهة، فجأة يطلع

عليه أعرابي، يذكره بناقصة من نواقصه، تتنافى مع النعِمَ التي يرفل بها الآن، ولكن واضع القصة أراد أن يقَول: إن السفاح، وهذا ملكه، كان في يوم من الأيام لئيماً، بحيث أنه كان يصيد أصغر الطيور، ويسارع لالتهامها، كما هي وبسرعة، حتى لا يشاركه فيها أحد.

العثرة الثانية، أن الأعرابي كان يُسارّه بالخبر، فكيف سمع داوود ما دار، وكيف تعدّى على حق السفّاح، وأدخل أنفه في الأمر، ولكن القاصَّ بلغ هدفه من هذه الفكرة، ويريد أن يخرج منها، فلم يفكر كثيراً في الأمر، ولم ينظر تحت قدميه، فعثر.

وننتقل إلى قصة أخرى مسرحها خارج المدينة، والممثل الأول هو الحجاج بن يوسف، مادة الأدباء الأولى في التأليف، وفي نحل القصص، له وعليه، كل فريق يجد فيه ضالّته، وهو لا حول له ولا قوة، لأنه الآن تحت الثرى، وقد بليت عظامه.

في هذه القصة تشويه لسمعة الحجاج، ووصفه بالجبروت، والظلم، وسفك الدماء، والحقد، وكل رذيلة يمكن أن تُلصق بحاكم حازم، ممن حَرَّموا حرية التحرك ضد الدولة الأموية، وهذه هي القصة، ينازع الحجاج فيها الدور الأول أعرابيٌ، كما هو متوقع، وهذه القصة واردة في: «الهفوات النادرة»[(١)]:

«حُكي أن الحجاج انفرد يوماً من عسكره في سواد واسط، فمرّ ببستاني، يسقي ضيعته، فوقف معه.

وقال: يا بستاني، كيف حالكم مع الحجاج؟

فقال: لعنه الله، المبيد المبير، الحقود الحسود، وعاء النقمة، مزيل النعمة، سافك الدماء بغير حلِّهَا، المفرق بين الحبيبة وخلِّها، جاعل النساء أيامىَ، والولدان يتامى، والروح شيئاً معدوماً، والمال إرثاً مقسوماً، عجّل الله منه بالانتقام، وصرف معرته، ومضرّته،

---

(١) ص: (١٠١).

عن المسلمين والإسلام.

فقال له الحجاج: أتعرفني؟

قال: لا.

قال: فأنا الحجاج.

فرأى البستاني دمه طائحاً، وموته لائحاً، فرفع عصا كانت بيده عليه.

وقال: أتعرفني؟ أنا أبو ثور المجنون، وهذا يوم صرعي. وأزبد، وأرغى، وهاج وعدا، وأراد أن يضرب رأسه بالعصا.

فضحك الحجاج منه، ومضى».

أسلوب هذه يختلف عن القصة التي سبقتها، ولكن الأديب المؤلف احتفظ بعناصر هذا الاتجاه في هذه التمثيلات، جعل المسرح خارج المدن، ووصل إلى هدفه من هجو الحجاج عن طريق الحوار مع الأعرابي، الذي لا يتصور أن يقول هذا الكلام المسجوع المنمّق

على البديهة، وإنما الذي قدر عليه أديب، كتب ومحا، وأسقط وأثبت، حتى تهيأ له ما أراد أن يوهم أنه حدث، ولكن المغالاة فضحته والتكلف كشفه.

وهناك قصة قد تكون حدثت، وقد تكون أُلِّفَتْ للتسلية، وهي كالآتي من (الهفوات النادرة)[1]:

«انفرد الرشيد وعيسى بن جعفر بن المنصور، والفضل بن الربيع في صيد عن الموكب، فلقوا أعرابياً مليحاً فصيحاً، فولع به عيسى إلى أن قال له:

يا ابن الزانية!.

فقال: بئس ما قلت، قد وجب عليك ردها، أو العوض منها، فارض بهذين المليحين، يحكمان بيننا.

قال عيسى: قد رضيت.

فقالا: يا أعرابي، خذ منه دانقين، عوضاً من شتمك.

---

(١) ص: (١٢٣).

فقال: أهذا الحكم؟

قالا: نعم.

قال: وهذا درهم، خذوه، وأمكم جميعاً زانية، وقد أرجحت لكم، بدل ما وجب لي عليكم.

فغلب عليهم الضحك، وما كان لهم سرور يومهم ذلك غير الأعرابي.

وضُمّ الأعرابي إلى الرشيد، وخُصّ به، وكان يدعوه في أكثر الأوقات، والأعرابي نادم واجم.

يقول الرشيد: لو عرفت لأبقيت، وربما نفع الحمق».

ونعود إلى الحجاج، وما أغرم به الأدباء وغيرهم من الوضع عليه، والنحل، وفِي القصة الآتية استعراض أدبي عال متقن، فضح وضعَه إتقانُه هذا، ولكن تبقى براعة الأديب، وعمق ثقافته، وسعة علمه، ومقدرته على وضع ما فيه من الجاذبية مما يجعل ما فيه من

معلومات مفيداً، وهذه القصة أوردها الصابي في كتابه «الهفوات النادرة»[1]:

«قيل إن أهل الكوفة أصابهم مطر شديد، في يوم صائف عظيم الحر، حتى سقطت سقوفهم، وتهدمت حيطانهم، والحجاج إذ ذاك بها، فركب، وسار منفرداً، ينظر مبلغ أثره، فأتى موضعاً يقال له: «العريان»، فرأى غلاماً من غلمان العرب، من أصبحهم وجهاً، وأحسنهم شباباً، ومعه قوس، وهو يتصيّد.

فقال له الحجاج: أقبل يا غلام.

فأقبل، فقال له:

ممن أنت يا غلام؟

قال: من الناس.

قال: وأي الناس؟

قال: من ولد آدم.

(١) ص: (١٧٤).

قال: فمن أبوك؟

قال: الذي ولدني.

قال: فأين ولدت؟

قال: على ظهر الأرض، في بعض الحجرات.

قال: فأين نشأت؟

قال: ما بين السماء والأرض في بعض الفلوات.

قال: وما اسمك؟

قال: وما تريد من اسمي؟

قال: أحببت أن أعرفك.

قال: واللّه ما ضرني إنكارك إياي في سالف الدهر، فينفعني اليوم علمك بي، ومعرفتك لي.

قال: إني أظنك مجنوناً،

قال أحلَّني ذاك عندك مجيئي إليك سعياً، كأنني ممن يرجو منك خيراً، أو يخاف لك شرّاً، ولستَ هناك.

قال: وما يدريك يا غلام؟

قال: لعيّك بجوابي، وإظهارك لسبابي.

قال: فانطلق معي أفعل بك خيراً.

قال: واللّه ما أرى فيك شيئاً من الخير، فأنطلق معك.

قال: ما أسفهك يا غلام.

قال: وما علمك بسفهي، وأنني سفيه، وأنت قد ذهب بك التيه، وذاك بك شبيه.

فبينما هما في ذلك إذا أحدقت بهما خيل الحجاج، فقالوا:

السلام عليك أيها الأمير ورحمة اللّه وبركاته.

فقال مغضباً: احتفظوا بالغلام.

ثم رجع إلى الكوفة، فلما اطمأن به المجلس أمر بأن يقف من جانبيه ستة آلاف رجل من الجند، بأيديهم الأعمدة والترسة والسيوف المخترطة، ثم أمر بإدخال الغلام عليه، فدخل يخطر بين الصفين، لا

يهوله ما يراه، حتى وقف بين يديه.

فقال له الحجاج: يا عدو اللّه أنت صاحب الكلام، لا أم لك، ولا أب لك، ولا أرض لك.

قال الغلام: لو كنتُ عدو اللّه كنت شيطاناً رجيماً، وما أحد بلا أم ولا أب إلا آدم وحواء، والأرض فاللّه يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، وما هي لي ولا لك، وأنا صاحب الكلام، فما أنكرت منه؟

فلما رآه لم يغفل عن الجواب، ولا تغيّر في الخطاب، أمسك عنه، مخافة أن يشتد غضبه، فيقتله، وأطرق طويلا، ثم رفع رأسه إليه، فقال:

هل أصابكم من هذا المطر؟

قال: نعم.

قال: فشهدت ابتداءه؟

قال: نعم.

قال: فصفه لي.

قال: والله لقد نظرت إليه حين أقبل تؤلفه الرياح، فوعهد الله ما عنانا، ولا اكترثْنَا له، ثم لم يلبث أن صار نَشاصاً (مرتفعاً متراكماً) لا ترى منه خلاصاً، ثم تحندس (اسودّ) وأظلم، واشتدّ واكتهمّ، وتزاحم حتى علا البقاع والقلاع، وبلغ رؤوس الجبال، فهدّ الصخور، وثوّر البحور، ثم هدأ، بإذن مَنْ على العرش استوى، ذلك تقدير العزيز العليم.

قال: يا غلام، سلني حاجتك.

قال: والله ما أسأل إلا من أنا وأنت عنده في المسألة سواء، ذلك الله ربي وربك.

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وبعث به إلى عبدالملك ابن مروان، فأضعف له الجائزة بعد أن أعجب وأنفق عليه، وانصرف إلى أهله مسروراً».

لا أدري ما الوقت الذي أخذته هذه القصة من كاتبها، فمن المؤكد أنها أخذت وقتاً طويلاً في

التفكير في عناصرها، وخطتها، والجدل الذي احتوت عليه، وبدؤها ونهايتها، والتصرف عند المآزق فيها، والتعرّج مع منحنيات التفكير.

والكاتب بلاشك حضري، حاول في حديث الغلام أن يكون بدوياً أو ريفياً إلا أنه أخفق، فوصف المطر ووصف من لا يعرف الأقوال في البادية عن المطر، ولم ينفعه التقعّر والتكلّف، باصطياد كلمات غريبة مثل: «نشاصا»و «تحندس» و «واكتهم»، ولا السجع المتكلف بين «نشاصا» و «خلاصا» و «أظلم» و «اكتهم».

من يا تُرى كان جالساً تحت حنك الحجاج يسجّل أقواله وأقوال الغلام، وأسئلة الغلام وأجوبته. إن النحل واضح، ويبقى الهدف من تأليف هذا الموقف، هل هو رسم صورة لانتصار غلام على الحجاج المكروه من بعض الفئات، أو هو للتسلية والترويح عن النفس، أو استعراض للمعلومات، والمقدرة الأدبية؟!.

وقد جرت العادة في مثل هذه المواقف أن يكون السؤال عن المطر هو أول شيء، وهو ما تذكّره المؤلف أخيراً، وجعل منه مخرجاً من التيه من الأسئلة التي أوقع نفسه فيها، وبحث عن مخرج، ووجده أخيراً في العودة إلى طبيعة مثل هذه النزهات.

والمتبصّر في الموقف يجد أن الحجاج خرج يتفقد ما أحدثه السيل من أضرار، ولم يخرج ليتفكه، لقد جاء السيل في وقت الحر، وهو غير الوقت المعتاد للمطر، وأحدث أضراراً بالغة، أولى أن تشغل همومها كل منحنى في ذهنه، وألاّ يكون في حالة ذهنية تتفسح بمواقف بعيدة عن الهدف الأساس.

ومن الأمور المضحكة المبكية المسرح الذي أعدّه الحجاج للغلام في الكوفة، أيُّ مجلس حاكم في الكوفة يتصور أن يقف فيه ستة آلاف رجل من الجند، بعداتهم وأسلحتهم؟! وهل لدى الحجاج هذا العدد

من الجند عاطلاً، ينتظر الأوامر للعرض؟! المعروف أن الحجاج لديه فقط جند للحراسة، أما غيرهم فلا يُجمعون إلا عند متطلبات الغزو، وهم على أهبة الاستجابة عند الطلب، ثم ما هو الداعي لجمع كل هؤلاء لأجل انبهار غلام لا في العير ولا في النفير، وهل كان هناك هدف لهذا الانبهار، وهل يراد من هذا الغلام أن يعرف الحجاج وسلطته؟

والحجاج لا يمكن أن يكون ترك اللّجاج مع الغلام، كما قال المؤلف، «مخافة أن يشتد غضبه، فيقتله»، والأولى أن يقول: تركه حتى لا ينفضح أمام جماعته بعيّه أمام هذا الغلام، ولكن المؤلف أراد أن ينهي الجدل الذي لم يبق في جعبته منه شيء، فأخذ زاوية حادة، لا يهمه إذا كانت تؤدي إلى صواب، أو خطأ، وبدأ يسأل عن المطر، وهو ما كان يجب أن يبدأ به من أول الأمر.

وأتى عن المطر بما دل على أنه حضري، لا يعرف عن البادية كثيراً، وإلاّ كيف يقول على لسان الغلام أنهم لم يكترثوا بالسحاب الذي بدأ يتراكم، والأعراب عادة يفرحون بالنسمة الرطبة التي تدل على أن مطراً سوف ينزل، ويبتهجون بالمزعة من السحاب أملاً أن تجذب غيرها، وأن تكون هي بشرى لما سوف يأتي منه مطر مدرار، وسيل غزير.

ثم يأتي الختام بإعطائه مبلغاً قبله الغلام، رغم أنه بيّن في أول الأمر أنه لا يريد منّة الحجاج، وحتى يكون الختام كالمعتاد أُرسل الغلامَ إلى الشام، تحفة تُهدى للخليفة عبدالملك بن مروان ليضاعف جائزته، وهو لم يسمع منه.

ومثل هذا الموقف عادة ينتهي بأن يبقيه الخليفة، ويكون من خلصائه، ولعل الكاتب المؤلف لم يُرد أن يحرم أهل الغلام من عودته إليهم سالماً غانماً..!!

ويبدو أنه ما على الكاتب إذا أراد أن يؤلف قصة عن الحجاج إلا أن يضع الإطار، والصحراء من أفضل ما يمكن أن يُخْتَار، فهي وأبناؤها وأمطارها، قريبة المتداول، وهذه قصة عن الحجاج تسير على المسار نفسه، وتتجه إلى ما اعتاد القراء أن يروه متَّحَدثا به عن الحجاج، وقد أوردها الجاحظ[1]:

«خرج الحجاج ذات يوم، فأصحر، وحضر غداؤه.

فقال: اطلبوا من يتغدى معي.

فطلبوا، فإذا أعرابي في شملة، فأُتي به.

فقال: السلام عليكم.

فقال: هلُمَّ أيها الأعرابي.

قال: قد دعاني من هو أكرم منك، فأجبته.

قال: ومن هو؟

قال: دعاني الله ربي إلى الصوم، وأنا صائم.

(١) البيان والتبيين، ص: (١٠٥).

قال: وصوم في مثل هذا اليوم الحار؟!

قال: صمت ليوم هو أحرّ منه.

قال: فافطر اليوم، وصم غداً.

قال: ويضمن الأمير أني أعيش إلى غد؟

قال: ليس ذاك إليه.

قال: فكيف يَسألني عاجلاً بآجل ليس إليه؟

قال: إنه طعام طيب.

قال: ما طيبه خبّازك، ولا طباخك.

قال: فمن طيبه؟

قال: العافية.

قال الحجاج: تا اللّه إن رأيت كاليوم!.

أخرجوه».

النحل في القصة يغلب على أصالة وقوعها، وهي لا تصمد أمام النقد، فاليوم صائف، كما ذكر الحجاج، والحكام لا يصحرون إلا في الطقس المنعش، والأعرابي

إذا كان صائماً فهو يستكن عادة في خبائه وقت القيلولة، وليس هو وقت الغداء في الغالب، والحجاج عندما خرج للصحراء لابد أنه خرج ومعه أصحابه، فكيف يبحث عن غريب يأكل معه؟! وهناك ملاحظة جانبية، قد يكون سها عنها الكاتب، أو أسقطها الناسخ، وهي أن الحجاج لم يرد السلام على الأعرابي عندما سلّم عليه، وعندما ألجم الحجاج بأنه لا يضمن للأعرابي أن يعيش إلى غد، حاد بزاوية حادة، وخرج عن الخط كليّةً، وقال: إنه طعام طيّب، والرجل لم يتركه لعدم طيبه، وينتهي الأمر بخطأ كبير، وهو قول الحجاج: أخرجوه!.

لماذا يُطرد هكذا، أفلا قال: إجلس وحدّثنا، وزوده عند فراقه بأكل يُثاب على إفطاره عليه؟!

ما الأمر إلا إلصاق بقعة سوداء في سيرة الحجاج، تجيؤه من أعرابي، وتبقى تتداول مع مرور الزمن، واللّه

وحده يعلم كم من الناس صدّقوها، لحنقهم على الحجاج، من كثرة ما كُتب عن سوئه.

وهناك قصة في كتاب: «مقالات الأدباء»[1] مسرحها البادية، فيها من الصُدف ما يؤكد نحلها، فقائلها ناحل لها، أو هي منحولة عليه، لأن ما فيها لا يمكن حدوثه في الواقع، وهذه هي القصة:

«قال عثمان بن الضحاك: خرجت، في آخر الحاج، أريد الحج، فنزلت خيمة بالأبواء، وإذا بامرأة على باب الخيمة، جالسة، فأعجبني حُسنها، فأطربتني حتى تمثلت بقول نصيب:

بزينب ألمم أن يرحل الركب
وقُل إن تَملّينا فما ملّك القلب

قال: فقالت: يا هذا، أتعرف قائل هذا الشَعر؟

(١) «مقالات الأدباء، ومناظرات النجباء»، ص: (١٦٤)، لابن هذيل الفزاري الغرناطي، دار البشائر، بيروت، تحقيق: محمد أديب الجادر، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

قلت: نعم، ذلك نصيب.

قالت: أفتعرف زينبته؟

قلت: لا، واللّه.

قالت: فأنا زينبته.

فقلت: حياك اللّه وبيّاك.

قالت: إن اليوم موعدَه، وعدني العام الأول بالاجتماع في هذا اليوم، فلعلك لا تبرح حتى تراه.

قال: فبينما أنا كذلك إذا أنا براكب يتراءى في السراب.

قالت: ترى ذلك الراكب؟

قلت: نعم.

قالت: إني لأحسبه إياه.

ثم أقبل، فإذا هو نصيب، فنزل قريبا من الخيمة، ثم أقبل، وسلّم، وجلس قريبا منها، فسألها، وسألته، ثم استنشدته ما أحدث من الشعر فأنشدها.

قال عثمان: فقلت في نفسي، مُحبّان طال التنائي بينهما، لابد أن يكون لأحدهما حاجة إلى صاحبه، فقمت إلى بعيري، لأشد عليه.

فقال: على رسلك، إني معك.

فجلست حتى نهض، ونهضت معه، فتسايرنا، ثم التفت إليَّ، فقال:

قلتَ في نفسك: محبّان طال التنائي بينهما، فالتقيا بعد ذلك، فلابد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة.

قلت: نعم، قد كان كذلك.

قال: لا ورب هذه البنية، منذ أحببتها، ما جلست منها مجلساً قط أقرب من مجلسي هذا الذي رأيت.

قال: ثم ودّعته، وودّعني، وافترقنا».

قصة جميلة نبتت في ذهن كاتبها، فأحسن روايتها، وأجاد إخراجها، إلا الصدفة المتكاملة، فهي التي توجب منا التحرز، ثم لا أدري عن حلف نصيب

بالبنية، وهو حلف عادة يقال أمام الكعبة، والحالف في وقتها يشير إليها، وأين هما من الكعبة[1]؟!

والأصمعي أديب مبرز، لغوي معروف، وراوية حافظ، ولكن المتمعن، أحياناً، فيما يروي يشك في أن ما يقوله على ألسنة أناس آخرين، إلا أنه من تأليفه، وكثيراً ما يكون مسرح صوره في البادية، أو عن رجالها أو نسائها، حتى الأشعار يُشك أحياناً أنها من تأليفه، نظمها لتتلاءم مع مقام هو فيه، وهو لا يتورع أن ينسب إلى نفسه ما قد يكون مضحكاً، ولا يتردد في هذا، حتى لو لم يكن ذلك في صالحه، ولو جمع هذا لكان حصيلة وافية، إلا أن يكون منحولا عليه، وأنه مشجب، استُفيد فيه من موقعه الأدبي.

والقصة الآتية رواية عنه، أوردها علي بن هذيل، في كتابه: «مقالات الأدباء ومناظرات النجباء»[2]، يقول فيها:

---

(١) إلا إذا كان المقصود «البُنَيَّة» أي البنت، ولكن الحلف الأول أشهر.

(٢) ص: (٢٢٢).

«كان رجلٌ من بني تميم، يقال له حنظلة، وكان له ابن يقال له مُرَّة، فكان يكثر عليه الخلاف، فكان أبوه ربما قاتله.

فقال له ذات يوم: يا مُرَّة، إنك لمرّ.

فقال لأبيه: أعجبتني حلاوتك، يا حنظلة.

قال: اسكت، فأنت والله أخبث مني كاسمك.

قال: أخبث مني من سمّاني!

قال: والله، يا بنيّ، لقد تشاءمت بك يوم ولدت.

قال: ما ورثته من كلالتك.

قال: ما أظنك من الناس.

قال: من أشبه أباه فما ظلم، والشوك لا يُجتنى منه العنب.

قال: بل أشبهت أمك.

قال: فوالله، ما كانت بأردأ من زوجها.

قال: ما أحوجك إلى أدب جديد.

قال: أحوج مني إليه من أدّبني به.

قال: قد كنت حريصاً على صلاحك دهري.

فقال: واللّه يا أبت ما أُوتيت من عجز، ولكن اللّه ـ تعالى ـ أعطاك على قدر نيّتك.

قال: واللّه، لقد ساءت حالك منذ تركت الدعاء لك، وأقبلت بالدعاء عليك.

قال: مادح نفسه يُقرئك السلام.

قال: دعني من هذا الكلام، فواللّه لأستقبلن من أمرك ما كنت مضيّعا.

فقال: واللّه لا تترك في يدك إلا الربح.

قال: واللّه، ما جرّأك على هذا أحد غيري.

قال: فَلُمْ نفسك إذاً، ولا تلمني.

قال: ويحك ما تستحي مني؟

قال: ما أحسن الحياء في مواضعه!.

قال: واللّه، لقد اجتمعت فيك خلال رديّة.

قال: فضل رداءتك يا أبت.
قال: أبوك الشيطان الرجيم.
فقال: قل لنفسك ما شئت.
فقال: واللّه، لقد دفنت أخاك ساعة ولدت.
قال: أعجبتني كثرة أعمامي، يا مبارك.
قال: واللّه، إنك لتغضبني بجوابك.
فقال: من تكلم أجيب، ومن سكت سَلِمْ.
قال: ويحك، قم عنّي.
فقال: إن أعفيتني من معاتبتك قمت عنك.
قال: ما يزداد كلامك إلا غلطاً.
فقال: واللّه ما يقصر عن الكلام إلا أحمق.
قال: ليس شيء أحسن من السكوت عنك.
فقال: إذاً، لا تدعك كثرة فضولك.
قال: قم، واللّه، لا أراك تصلح أبداً.
فقام وهو يقول:

كيف يصلح من كنت أباه...».

وهكذا انتهى هذا الجدل المفتعل، وقد تعب مؤلفه، سواء كان الأصمعي نفسه، أو كان هو مشجباً علقت على روايته هذه القصة، وقد عني كاتبها أن يجعل رجحان الكفة مع الولد، زيادة في حَنق القارئ على أبيه، وكونها بين أب وابنه تلفت النظر إلى ما فيها من عقوق من الابن، وسوء تربية من الأب، ولابد أنها أخذت تفكيراً طويلاً من مؤلفها، وجهداً صعباً في الخروج من هذا الجدل.

ويبدو أن الأصمعي كثير الخروج لمضارب البادية، ولأن هذا عرف عنه أعطاه الحق أن ينحل على لسانه ما يرى أنه يستحق أن ينتشر، سواء كان ذلك حكمة، أو مثلا، أو شعراً، أو أعطى الذين ينحلون باسمه هذا الحق. وما يأتي منه، أو على لسانه، غالباً يكون فيه فائدة، أو طرافة، أو هما معاً:

يقول صاحب «الموشَّى»[1]:

«قال الأصمعي:

سمعت أعرابيا ذكر بعض الحُسَّاد، فقال:

ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد:

حزنٌ لازمٍ، ونفس دائم، وعقل هائم».

هذا قولٌ حق، جاء من فكر سليم، وبأسلوب قوي، ولغة فصيحة، بقي من القائل؟ أهو الأعرابي المجهول، أو الأصمعي الأديب العالم، أو من وضعها على لسان الأصمعي.

ويقص صاحب «الموشى» (ص ٢١) قصة تُروى عن الأصمعي، مُدَثَّرة بدثار الوعظ، والقول الصائب، والإيمان القوي:

«أخبرني أحمد بن عبيد قال:

أخبرني الأصمعي عن رجل من العرب، قال:

---

(١) ص: (١٣).

خرجت في بعض ليالي الظُّلَـم، فإذا بجارية كأنها صنم، فراودتها عن نفسها، فقالت:

يا هذا، أما لك زاجر مـن عقل، إذا لـم يكن لك واعظ من دين؟

قلت: واللّه، ما يرانا إلا الكواكب.

قالت: يا هذا، فأين مكوكبها؟

فقلت: إنما كنت أمزح.

فقالت:

فـإيـاك، إياك المزاح، فـإنـه
يُجرئ عليك الطفلَ والدنس النّذلا
ويُذهب ماءَ الوجه بعد وضاته
ويورث بعد العـزّ صاحبه ذُلاّ»

هذه القصة، وما حوته، فيها من روح الأصمعي، فإن كان ابتدعها فلا غرابة، وإن كانت علقت عليه فقد أتقن المعلِّق التعليق والمعلَّق.

ويُستنطق أعرابي قولاً حسناً، مبطّنا بالحق، يمشي في هدي الدين، يأتي برواية الأصمعي، تماماً مثل سابقه:

«وقد حكى الأصمعي قال:

سمعت أعرابياً يقول لأخٍ له:

أي أُخَيّ، إن الصديق يحوّل بالجفاء، وإني أراك رطب اللسان من عيوب أصدقائك، فلا تزدهم في أعدائك»[1].

وموقف آخر للأصمعي مع أعرابي يذكر صاحب الموشى[2] فيه من طرق الأصمعي ما يلفت النظر، وهو غرابة الحدث، أو طرافته:

«بلغني عن الأصمعي أنه قال:

قلت لأعرابي مرّة: ما العشق فيكم؟

قال: النظرة بعد النظرة، وإن كانت القبلة بعد

---

(١) الموشى، ص: (٢٧). (٢) المصدر نفسه، ص: (١١٥).

القبلة، فهو الوصول إلى الجنّة.

قلت: ليس العشق عندنا كذلك.

قال: فما هو عندكم؟

قلت: تفرّق بين رجليها، وتحمل نفسك عليها.

فقال: بأبي أنت لست بعاشق، إنما أنت طالب ولد».

أول القصة فيه من أسلوب الأصمعي، أما آخرها عما يخص العشق عند الحضر ففيه ما لا يتماشى مع ما عُرف عنه.

ويخطر في البال أحياناً، والأصمعي يروي رواياته أنه يسوق شعراً قاله عن طريق وضعه على لسان أعرابي، وكانت أقوال الأعراب في ذلك الوقت لها قبول، وأيُّ قبول، عند الناس! والقصة الآتية فيها شيء من ذلك، وهي من كتاب «الموشّى»[1]:

(١) ص: (١٢٣).

«خُبِّرت عن الأصمعي، قال:

كان رجل من الأعراب يُظهر الوجد لامرأته، والحب لها، وكانت تُظهر له مثل ذلك، فتعاهدا ألا يتزوج منهما الباقي بعد صاحبه، فاخْتُرِمَتْ المرأة قبله، فخطب الرجل امرأة من يومه ذلك.

فقيل له: أتخطب بعد يمينك وعهدك؟

فقال:

خطبتُ، كما لو كنت متُّ قبلها

لكانت، بلاشك، لأوّل خاطب

إذا غاب بعلٌ كان بعلٌ مكانَه

ولابد من آت وآخرَ ذاهب»

فكرة جميلة أوحت بقصة، فوضعت على لسان أحد الأعراب، وسُوّق معها هذا الشعر الذي قدم فيه العذر.

ونتقل مع الأصمعي مرة أخرى إلى الصحراء،

ونتطلع إلى ما يدور في ذهنه من أفكار، ونرى كيف تظهر على لسان أحد الأعراب، أو إن كانت فعلاً ذات أصل أصيل، فكيف سوف يلبسها الأصمعي ثوباً قشيباً، وهي من كتاب «الموشَّى»[(١)].

«روى الأصمعي أيضاً، قال:

خرجت أريد بعض أحياء العرب، فجنّني الليل، وبتُّ في جبَّان (مقبرة)، وتوسّدت قبرا، فسمعت في الليل من القبر قائلاً يقول:

أنعم اللّه بالخيالين عينا
وبمسراك يا سعاد، إلينا
وحشة ما لقيت من خلل القَـ
ـبر، عسى أن أراك أو ترينا

فأرقت ليلتي، فلما أصبحت دخلت الحي، فإذا بجنازة قد أُقبل بها، فسألت عنها، فقيل:

(١) ص: (١٢٩).

هذه سعاد، كانت تحبّ ابن عم لها، وإنهما تعاقدا على الوفاء، فهلك قبلها، فلم تزل تبكي عليه، فها هي قد لحقت به.

فتبعتهم، حتى دفنتْ إلى جانب القبر، الذي بتُّ عنده، وإذا هو قبر ابن عمها، فخبّرتهم بما سمعت، وانصرفت».

كل مقطع من هذه القصة يدل على النحل، وعلى الافتئات، وتتبارى هذه المقاطع، أمام المتبصر، أيها يظهر بجلاء أكثر من الآخر، وأحسب أن الأبيات التي جاءت من القبر هي التي سوف تحوز قصب السبق، لبعدها في الخيال عن الواقع، ولأن الإسلام يؤكد انقطاع الميت عن دنياه، والحب والعشق كل منهما أمر دنيا، والميت لقي ربه، وتجرّد من الدنيا، ويؤمل في رحمة اللّه، والحور العين في الآخرة، في جنات النعيم.

والمقطع النّاخر في بناء القصة أن الأصمعي، إذا صح ما تواتر عنه، رجل يتردد كثيراً على البادية، ويعرف المسافات، ويحسن اختيار الأوقات، فكيف يختار الآن وقتاً تعوق فيه الظُلمة سيره إلى هدفه؟.

فإذا كانت خانته هذه المرّة حاسّته وتجربته، فلماذا لم يعد إلى بيته بدلاً من أن ينام في المقبرة، وهي معروفة بوحشتها، وتوهّم الإنسان ما يحدث فيها، مما زرع في الأذهان من الصغر، مما لا يمكن الكبير، عندما يكبر، أن يتخلّص منه كله؟

والمقطع الثالث هذه الصدفة، وهو داخل البلدة، يرى جنازة يتبين أنها سعاد، ويتبرع من أخبره بذلك، فيقص عليه قصتها، لتكمل أمامه صورة اللّغز الذي بدأه من المقبرة، وما سمع من القبر، ثم هو لا يبخل على من أخبره أن يخبرهم بما لديه، وقفل باب الأمر كله بهذا، وانصرف الأصمعي معافى!.

حتى لا تقل منزلة الأصمعي عندنا سوف نوحي لأنفسنا بأنه ضحية، وأن هذه قيلت على لسانه، ولأن رواياته وأدبه سهلة ممتعة، ومعروف أسلوبه فيها، سهل على من يريد أن يشبع غروره، وطموحه أن يضع فكرته على كتف الأصمعي، وهو كتف عريض، يتحمل مثل ذلك لأجل الأدب، ألم يُستسهل أسلوب حميدان الشويعر، وسليمان ـ راع الداخلة ـ لسلاسة شعرهما، فينحل عليهما بزيادة بعض قصائدهما، أو بقصائد قائمة بذاتها، إقرأ مثلاً قصيدة سليمان بن علي ـ رحمه الله:

دنّ القلم والسّجلّة   واكتب يا صاح بسملة

وأنا أضمن أن باستطاعتك أن تزيد فيها أبياتاً راقصة رقصة أبياته، فلا يدري عن ذلك أحد.

وعندما نقول إن للأصمعي نهجاً يُعرف به، فإننا نرى هذا فيما يضعه على ألسنة مجهولين، إن

لم يكن في البادية ففي محيط يماثلها، وله في العشق والحب، وما قيل فيهما أحاديث تترى، فيها، وفيما يهم الناس في زمنه، مما هو زينة حديث المجالس، وبلاط الخلفاء، ومن أمثلة ذلك مما يدل على نهجه، وخططه، وأسلوبه، ومساقط اهتمامه، القصة الآتية، وهي من كتاب «الموشي للواشي»[1]:

«وخُبِّرت عن الأصمعي أيضاً أنه قال:

رأيت جارية، وهي تقول:

اللهم، مالك القضاء، وخالق الأرض والسماء، ارحم أهل الهوى، واستنقذهم من عظيم البلاء، واعطف عليهم قلوب أوِدَّائهم بالصفاء، فإنك سميع النَّجوى، قريب لمن دعا، ثم أنشأت تقول:

ياربِّ، إنك ذو منٍّ ومغفرة

بَيِّتْ بعافية منك المحبينا

---

(١) ص: (١٠٦).

الذاكرين الهوى من بعدما سهروا
حتى يظلوا على الأيدي مكبينا

فقلت: يا هذه، أتغنين وأنت في الطواف؟

فقالت: إليك عنّي، لا يرهقك الحبّ.

فقلت لها: وما الحبّ؟ وأنا به أعرف منها!.

فقالت: جلّ أن يخفى، ودقّ عن أن يُرى، له كُمُونٌ ككمون النار في الحجر، إن قدحته أدراك[1]، وإن تركته توارى.

قال: فتبعتها، حتى عرفت منزلها.

فلما كان من الغد جاء مطر شديد، فمررت ببابها، وهي قاعدة مع أتراب لها زهر، يقلن لها:

لقد أضرّ بنا المطر، ولولا ذلك لخرجنا إلى الطواف.

قالوا أضرّ بنا السحاب بقطره،
لـمّـا رأوه لعَبْـرَتي يحكـي

(١) لعل صحتها «أورى»، لتتماشى مع «توارى» بعدها.

لا تعجبوا مما ترون، فإنما
هذا السحاب لرحمتي يبكي»

هذا هو الأصمعي يروي عن مجهول، ويضع على لسان هذه الفتاة ما يؤمن به عن الحب، ويضع الشعر، الذي يشفع له عندنا بالسماح له بأن يبتدع، ويختفي خلف ستار شفاف: أعرابي أو أعرابية، غلام أو جارية، في الصحراء مفحص العشق، أو في المطاف، حول الكعبة، حيث فرصة الاقتراب من الجنس الآخر، دون شبهة أو حرج.

هنا لم يتخلّ الأصمعي عن بصمته التي نعرفه بها، وهي تراكم الصدف، والسير في ظلها، فقد تتبع الفتاة، إلي بيتها، ثم أتت به الصدفة ليراها في اليوم الثاني، ليسمعها تنشد، لتكمل الصورة التي أرادها، ولم ينس البصمة الثانية التي تعرف به، وهي المطر، فالمطر يأتي للصحراء، ويأتي للمدن!.

ونستطيع أن نحدس السبب الذي جعل الأصمعي يهتم بالعشق والحب، لأن هذا هو هاجس زمنه، وهمّ الشباب، يقول الأصمعي لأبي وائل الإضاخي، «الموشى»[(١)]:

ما تقول في العشق؟

فقال: إن لم يكن عصارة من الشجر، فهو ضرب من الجنون، وأنشأ يقول:

بقلبي شيء لست أعرف وصفه،

على أنه، ما كان، فهو شديد

تمرّ بهِ الأيام تسحب ذيلها،

فتبكي به الأيام، وهو جديد

ولا يكفي الأصمعي ذلك القول، فذهنه مولع بهذا الأمر، فيقول في موضع آخر من «الموشّى»[(٢)]:

«أخبرني الأصمعي قال:

---

(١)، (٢) ص: (١٠٦).

رأيت أبا السائب المخزومي متعلقاً بأستار الكعبة، وهو يقول:

اللهم ارحم العاشقين، واعطف عليهم قلوب المعشوقين، بالرأفة والرحمة، يا أرحم الراحمين.

فقلت: يا أبا السائب: أفي هذا المقام تقول هذا المقال؟

فقال: إليك عنّي، الدعاء لهم أفضل من حجة بعمرة[1]، ثم أنشأ يقول:

يا هَجْرُ كفّ عن الهوى، ودع الهوى
للعاشـقين يطـيب يا هجـر
مـاذا تريد مـن الذين جفونـهم
قرحى، وحشو صدورهم جَمْرُ
وسوابق العبـرات فوق خدودهم
هُطلاً، تلوح كأنهـا القطر

(١) نعوذ بالله من الزلل، ومن بخس الدين حقه بغية الفكاهة.

صرعى على جسر الهوى لشقائهم

بنفوسهم يتلاعب الدهر

في هذا الدعاء الذي كان يدعي به الرجل عند الكعبة معاني تشبه دعاء الفتاة التي روى الأصمعي عنها ما روى: فالجارية تقول: «ارحم أهل الهوى».

وأبو السائب يقول: «ارحم العاشقين».

والفتاة تقول: «اعطف عليهم قلوب أودّائهم بالصفا، فإنك سميع النجوى».

وأبو السائب يقول: «اعطف عليهم قلوب المعشوقين بالرأفة والرحمة، يا أرحم الراحمين».

وكل منهما، الرجل والمرأة، متعلّق بالكعبة، وكل منهما سأله الأصمعي، وكل منهما رد رداً عجيباً، وكل منهما قال شعرا، فما معنى هذا إلا النحل، ونسيان السابق للاحق!.

وهكذا الأصمعي يأخذه الحماس، فيخرج

كما رأينا في قصة أبي السائب إلى ما قد يلحقه بالخطأ المفزع، مثل قوله: «إن الدعاء لهم أفضل من حجة بعمرة»، أبعدنا اللّه عن مزالق الزلل، وحبائل الحماس، والمغالاة!.

ونرافق الأصمعي، في بعض البوادي، ونرى ما خط قلمه عن رحلة إلى الصحراء: «المختار من نوادر الأخبار، للمقري، ص: ٢٨»[١]:

«قال الأصمعي:

حططت، في بعض البوادي، فحضرني جماعة من فتيان العرب، فقلت لأحدهم:

ما القري؟

قال: نار يعلو شررها، وخيمة يوطى كنفها.

فقلت لآخر: كيف القري؟

قال: تلقى النزيل، بالوَجه الجميل.

---

(١) دار ابن حزم، سندباد للترجمة والنشر والتوزيع.

وقال آخر: نار تأجج، وأسنّة تلهوج.

وقلت لشيخ فيهم: ما تقول أنت؟

قال: تأجُّج الضرام، تستدلّ به على بيوت الكرام.

وقال آخر: نار قديمة الوقاد، عظيمة الرماد، تُشَبّ بكل واد، ويحيا بها كل العباد.

وقلت لآخر: ممن القوم؟

فقال: من الذين لا تخفى نارهم، ولا يجوع جارهم، وحَسَبهُم في العلياء أشهر من نجوم السماء».

وروح الصحراء معنا في القصة الآتية،وهي من كتاب «المختار من نوادر الأخبار، ص: ١٠٠»، وهي تجسّد فكرة نبتت في ذهن كاتبها، فهيأ لها هذا المسرح اللائق، وأخذ يختار الممثلين الذين يُعرف أنهم سوف يؤدون المهمّة، التي جاء بهم لها، وأخذ يحركهم تدريجاً خطوة خطوة، لتكمل الخطة كما أراد لها، وهي بلاشك تعالج معضلة اجتماعية، كانت بارزة

في المجتمع في ذلك الوقت، ويشعر الأدباء أن عليهم واجباً يحضهم على المشاركة في علاجها، فهم يأتون بهذه القصص مجهمّة مكبرة، حتي يتبين للمجتمع مدى الضرر الذي تحدثه للناس، والأذى الذي تسببه للخلق، وتكشف الجوانب البشعة لهذه العادة المستشرية عند القبائل في الصحراء، مما لا عقل فيها، ولا منطق، وإنما أمور توُورثت من أزمان الظُّلمة والجهل، وألبست لباساً برّاقاً كاذباً، ووُصلَتْ بالشرف عدوانا، ونسبت إلي المروءة ظلماً، وأُصِّلت ضمن ثوابت الخُلق اعتسافاً.

من هذا الجانب تُقبل، كما نقبل اليوم القصص الحديثة، التي يؤتى بها تبصرة لما قد يكون في المجتمع من خلل، وهي تكشف نظرة الكاتب، وما يؤمن به، وما يدعو إليه.

والكُتّاب في زماننا يعلنون على رؤوس الأشهاد

أنها قصة متخيلة، ولكنها تعكس ما في المجتمع، مما يريد الكاتب أن يلفت النظر إليه تحبيباً أو تحذيراً، بينما كُتَّاب ذاك الزمن لابد لهم من مشجب يعلقون عليه ما يريدون أن يبثّوه، ويحرصون على تغطية أثرهم في الوضع والنحل، وهذه هي القصة[1]:

«حدث محمد بن سهل قال:

حدثني محمد بن قيس، قال:

وجّهني عامل المدينة إلى يزيد بن عبدالملك، وهو إذ ذاك خليفة، فلما خرجت من المدينة لليلتين أو ثلاث، وإذا بامرأة قاعدة على الطريق، وفي حجرها شاب يتلوّى، وكلما سقط من حجرها أعادته.

فسلّمت عليها، فردّت المرأة السلام، والشاب مشغول بنفسه، فسألتها عنه فقالت:

يا عبدالله، هل لك في الأجر والمثوبة؟

---

(١) «المختار من نوادر الأخبار»، ص: (٩٥).

قلت: ولا أبغي سواهما.

فقالت: إعلم أن هذا ولدي، وكانت له ابنة عم، تربّيا جميعا، وشغف بها وشغفت به، وعلم بذلك أبوها، فحجبها عنه، وكان يأتي الموضع الذي هي فيه، ويقف على باب الخباء، ويبكي.

ثم خطبها من أبيها، فأبى أن يزوجه بها، وقال: إنا نرى ذلك عيباً أن تُزوّج امرأة لرجل كان يحبّها، ثم خطبها رجل غيره، فزوجها أبوها منه، منذ خمسة أيام، وهو على ما ترى، لا يأكل، ولا يشرب، ولا يعقل، فلو نزلت إليه، وتحدثت معه، ووعظته، وسلّيته، لعله يسكن إلى حديثك، ويتقوّت بشيء من الطعام.

قال محمد: فنزلت إليه، ودنوت منه، وتلطّفت به، فرفع إليَّ طرفه، وقال:

ألا ما للحبيبة لا تعود

أبخل بالحبيبة أم صدود؟

فقدتكِ بينهم، فبكيت شوقا

وفقد الإلف، يا سكني، شديد

فلو كنتِ المريضةَ كنتُ أسعى

إليك ولو ينهنهني الوعيد

وسكت.

فنظرت المرأة إلى وجهه، وصرخت، وقالت:

فاضت ـ واللّه ـ نفسه، قالتها ثلاثاً.

فغشيني من ذلك غمّ وهمّ.

فلما رأت العجوز ما حل بي من الحزن عليه، قالت:

يا ولدي، هوّن عليك، واللّه، لقد استراح مما كان فيه، وقدم على ربّ كريم، فهل لك في استكمال الأجر؟

قلت: نعم.

فقالت: هذا الحي منك قريب، فإن رأيت أن تمضي إليهم، تنعاه لهم، وتسألهم الحضور، ليعينوني على مواراته، ودفنه، فافعل.

قال محمد: فركبت، وأتيت الحي، فنعيته لهم، وأخبرتهم بصورة أمره، فبينما أنا أدور في الحي، وإذا بامرأة خرجت من خبائها تجرّ خمارين، ناشرة شعرها، وقالت:

أيها النَّاعي، من تنعي؟

قلت: فلانا،

قالت: باللّه عليك، مات؟

قلت: نعم.

قالت: هل سمعت منه شيئاً قبل موته؟

قلت: نعم، فأنشدتها الشعر، فجعلت تبكي، وتقول:

عداني أن أزورك، يا حبيبي

معاشر كلهم واش حسود

أشاعوا ما علمت من الرزايا
وعابونا وما فيهم رشيد
فأما إذا ثويت اليوم لحدا
فدور الناس كلهم لحود
فلا طابت لي الدنيا حياة
ولا سحّت على الأرض الرعود

ثم خَرَجَتْ مع القوم، وهي تولول، حتى انتهينا إلي الغلام، فغسّلناه، وكفّناه، وصلينا عليه، ودفناه.

فلما تفرقنا عن قبره، جعلت تصرخ، وتلطم في صدرها، فركبت، ومضيت، وهي على تلك الحالة، فأتيت يزيد بن عبدالملك، فأعطيته الكتاب، فسألني عن أمور الناس، وما رأيته في طريقي، فأخبرته بهذه الحكاية.

فقال: يا محمد، إمض الساعة قبل أن تشتغل بأمر، وتوجه إلى أهل الفتى، وبني عمه، فخذهم

وامض بهم إلى عامل المدينة، وأمره أن يثبتهم في شرف العطاء، وإن أصاب الجارية مثل ما أصابه، فافعل بأهلها، كما فعلت بأهله، ثم ارجع إليَّ حتى تخبرني بذلك، وتأخذ جواب الكتاب.

قال محمد: فخرجت مبادراً حتى وصلت إلى قبر الغلام، فوجدت بجانبه قبراً آخر، فسألت عنه، فقالوا: هذا قبر الجارية، ولم تزل تصرخ، وتلطم في صدرها، حتى فاضت نفسها، ودفنت بجانبه.

فجمعتُ أهلها، فأثبتّهم في شرف العطاء، ثم عدت إليه، فأخبرته بذلك، فأحسن إليَّ، وأجازني».

الأديب ـ هداه اللّه ـ أراد قصة حزينة، لأنه يعالج مشكلة اجتماعية، ولو أرادها غير ذلك، لكان محمد النجاب هذا، لما عرف المشكلة، أبقى الشاب حيّاً، وأبقى الفتاة غير متزوجة، ولكنها محجوبة، ووالدها مصر على عدم زواجها من ابن عمها، فطار

محمد بن سهل إلى يزيد بن عبدالملك، وأخبره بالأمر، فيتدخل يزيد، وهو الخليفة، بما يرضي والد الفتاة، ويزوجها للشاب، وتكون النهاية سعيدة.

ولكن الأديب، الذي ألّف القصّة، له رأيه، وله طريقته، ألا ترونه جعل يزيد يسأله عن الناس، وعما مرّ به في رحلته، فجاءت الفرصة ليقصّ القصة، ويرسله، عجلا، لهم ليقرر لهم معاشاً في سجل الشرف، وكما توقع يزيد، فالفتاة لحقت بالشاب، لأن القصص كانت تروى بأن العشق يقتل.

وننتقل إلى البصمة المحببة لناحلي الأعرابَ بعض القصص، التي يضعون في هودجها الفكرة التي يريدون لها أن تطير في الآفاق، وهي من كتاب: «المختار من نوادر الأخبار»[1]:

«خرج أمير المؤمنين، العباس السفاح، متنزهاً

(١) ص: (١١٤)

بالأنبار، فأمعن في تنزهه، وانفرد عن أصحابه، فوافى خباءً لأعرابي، فقال للأعرابي:

أأنت صاحب هذا الخباء؟

قال: نعم، فمن أنت؟

قلت: من كنانة.

قال: فمن أيها؟

قلت: من أبغض كنانة إلى كنانة.

قال: تكون قرشيًّا.

قلت: نعم.

قال: فمن أيها؟

قلت: من أبغض قريش إلى قريش.

قال: تكون من ولد عبدالمطلب، فمن أيها أنت؟

قلت: من أبغض عبدالمطلب إلى عبدالمطلب.

قال: السلام عليك، يا أمير المؤمنين، ورحمة اللّه وبركاته، فاستحسن ما رآه من حذقه، وأمر له بعطاء

حسن».

من المؤكد أن الفكرة في الأساس في ذهن المؤلف، وهي ما بين فروع القبيلة وعشائرها من عداوات، ففصل لها هذا الإهاب، وألبسها هذا الرداء، الذي لا يقف أمام النقد، إذ كيف هيّء للسائل أن يختار العدو الذي يوصله إلى أمير المؤمنين، كان بالإمكان أن يختار العدو الآخر، ويتوه في شعاب القبيلة، ولكن الرجل قال كلمته، وتخلّص من الحسيب أو الرقيب.

يلاحظ في هذه القصة أن الأعرابي، خلافا للمعتاد، هو الذي يسأل، والقائم بالنزهة هو المسؤول، وهذا شيء من التجديد!!.

وننتقل إلى الأعراب، وما يأتي منهم، عنهم، من أسئلة وأجوبة، اعتدنا على نمطها، وعلى سير الحديث فيها، وعلى مواضيعها، وما ترمي إليه، وهذه قصة

تؤكد ما نعرفه عن هذا المسرح وأمثاله، وما يمثل عليه، وهي في كتاب: «المختار من نوادر الأخبار»[1].

«قيل: لقي الحجاج يوماً أعرابياً فقال:

من أين أقبلت؟

قال: من البادية.

قال: وما في يدك؟

قال: عصاي، أركزها لصلاتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمد بها في مشيتي، لتتسع خطوتي، وأثب بها النهر، وتؤمنني العثْر، وألقي عليها كسائي، فتقيني الحرّ، وتؤمنني القرّ، وتدني إليَّ ما بعد عني، وهي محلّ سفرتي، وعلاّقة أدواتي. أعصي بها عند الضراب، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقور الكلاب، وتنوب عن الرمح في الطِعانْ، وعن السيف عند مبارزة الأقران، ورثتها

---

(١) ص: (١٢٩)

عن أبي، وأورثها بعدي ابني، وأهش بها على غنمي، ولي فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى».

وهذه القصة نَفَسُها قصير، ليست مثل غيرها فيها أخذ ورد، ودور الحجاج لم يزد عن سؤال واحد سأله عما في يد الأعرابي، وكأنه لا يرى أنها عصا، والأعرابي لم يُسأل عن غرضه من العصا، وجاء بكل ما عنده، دون أن يطلب منه ذلك.

وهذه قصة أعرابي، ومادامت كذلك ففيها رائحة الصحراء، وروحها، وبدلا من أن يذهب داوود ابن المهلب بطل القصة، إلى الأعرابي في أرضه، ومحيطه، جاءه الأعرابي إلى حيث كان داوود مقيماً، ونسي سابك القصة أن داوود ليس الخليفة، ولا يقتل الناس على عدم إجادتهم مدحه، حتى الخليفة لا يفعل ذلك، مع أنه لو فعل، فلا حسيب له إلا الله، أما داوود ففوقه الخليفة الذي نصّبه، يستطيع عزله،

وأخذ حياته قصاصاً لو قَتَل الأعرابي، ولكنه الخيال، إذا جمح، فهو جموح الحصان، لا ينبّه الناس أنه سوف يفعل، فقد يلقى براكبه، وقد يركله، وقد يلقيه في الوحل!، والقصة في كتاب: «المختار من نوادر الأخبار ص: ٥٠»[1]، أحسن صاحب الكتاب المقري اختيارها بين النوادر:

«روي عن داوود المهلب، وكان أجود الأجواد، فحضر طعامه يوماً رجل بدويّ، عليه شعث السفر، وكان إذا حضر الطعام، يتقدم فيصرف البوابين، ولا يمنع أحداً من الوصول إلى طعامه.

فلما فرغ من الطعام، وثب داوود قائماً، وأومأ إليه، وقال:

من أنت؛ يا فتى العرب؟

قال: شاعر قصدتك بأبيات من الشعر.

(١) لشمس الدين محمد بن أحمد المقري، سندباد للترجمة والنشر والتوزيع، دار ابن حزم.

فقال داوود: مهلا قليلا.

ثم دعا بقوس، فأوتره، وسهما ففوَّقها، وأومأ إليه، وقال له:

قل، فإن أحسنت خلعت عليك، وأجزتك، وإن أخطأت رميتك بهذه السهم، تقع في أي موضع تقع.

فتبسم البدوي، وقال هذه الأبيات:

أمِنْتُ بداوود وجود يمينه
من الحدث المرهوب والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بداوود نبوة
ولا حدثان إن شددت به أزري
فما طلحة الطلحات ساواه في الندى
ولا حاتم الطائي ولا خالد القسري
له حُكْم لقمان وصورة يوسف
ومُلك سليمان وصدق أبي ذرّ

فتى تهرب الأموال من جود كفّه
كما يهرب الشيطان من ليلة القدر
فقوسك قوس الجود والوتر النديّ
وسهمك فيه الموت فاقتل به فقري

قال: فضحك داوود، ورمى القوس من يده.

وقال: يا فتى العرب، باللّه، هل كان ذكر القوس في الأبيات؟

فقال: لا، واللّه، ولكن حضرتني القافية.

ففرح بذلك، وقال:

يا فتى العرب، باللّه، أيهما أحب إليك: أأعطيك على قدرك، أم على قدري؟

قال: بل على قدري.

قال: كم قدرك؟

قال: مئة ألف درهم.

فأمر له بها ثم قال:

ما منعك أن تقول: على قدري؟

فقال: أيها الأمير، أردت أن أقول ذلك، لكن الأرض لا تساوي قدر الأمير، فطلبت على قدري.

فقال: زه، لله درّك، واللّه إن نترك لأحسن من نظمك، وكلاهما مليح، وأمر له بمئة ألف ثانية، وسأله أن لا ينقطع عنه».

يكاد القارئ المطّلع على كتب الأدب أن يسبق الكاتب فيما سيكون، لأن نمط القصة مثل نمط كثير من القصص، التي تجري مجراها، ولو كان الممدوح الخليفة لضم البدوي هذا إلى حاشيته، لعبقريته، ولأن بلاطه سيزداد لؤلؤة وسط عقد رجاله.

ومادام العرب المنخرطون من قبائل عربية أصيلة، يذهبون إلى الصيد، والصيد لمن هو من قبيلة ولمن هو من غير قبيلة، مادام يستطيع تجهيز الرحلة، ولهذا محبو البرامكة رأوا ألا يُحرم البرامكة من التحلّي بهذه

الحلية، فجاءت هذه القصة المتخيّلة الجميلة المطربة الطريفة، أحسن قصّها منشؤها، وأجاد سبك أجزائها، وأتقن مجرى الأبيات مع الحوادث وسيرها، والقصة من كتاب: «المختار من نوادر الأخبار»[(١)].

وقد ذكر عن الفضل بن يحيى بن خالد، أنه ركب في حشمه بموكبه إلى الصيد، حتى علا النهار، ثم أمر، فضربت له المضارب، وأمر بالطعام، فقدّم بين يديه.

فبينما هو يأكل، وإذا بأعرابي على ناقة قد أشرف، فلما نظر إلى تلك المضارب، والجيش، والجنائب، والغلمان، ماشك أنه هارون الرشيد، فنزل عن ناقته، وعقلها، ثم دنا، وقال:

السلام عليكم، يا أمير المؤمنين، ورحمة اللّه وبركاته.

---

(١) ص: (٥٢)

فقال الفضل: صه!.

فقال: السلام عليكم، أيها الوزير.

فقال: صه.

فقال: السلام عليكم، أيها الأمير.

فقال: قد قاربت، فادن.

فدنا، وأكل.

فلما فرغ من الأكل، قال له الفضل:

من أي العرب أنت؟

قال: من ربيعة.

فقال: أين تريد؟

قال: إلى الفضل، فقد شاع في العرب ذكره وكرمه، فقصدته على الاسم والذكر ببيتين من الشعر.

فقال: يا أخا العرب، قد مالحناك، ووجب نصحك علينا، وأنا عارف بالفضل، فأنشدنا، فإن كان يصلح له وصلناك إليه، وإن لم يكن أعطيناك نفقة

توصلك إلى أهلك، وأنت على جاهك.

فأنشد:

ولو قيل للمعروف: ناد أخا العُلا

لنادى بأعلى الصوت: يافضلُ يافضل

ولو أمُّ طفل قضّها جوع طفلها

وغذَّته باسم الفضل لاستطعم الطفل

فقال الفضل: أحسنت، إنهما لبيتان جيّدان، ولكن إذا قال لك الفضل: هذان بيتان لقيتهما من شعر العرب، وجئتنا بهما، لتخدعنا عن حاجتك.

قال: أقول له يأمر بإحضار كتاب فيه شعر فيفتحه، فأي وزن وقافية اشتهى، عملت عليها بيتين.

فقال: يا غلمان، احضروا كتاباً فيه أشعار.

فحضر، ففضّه، فخرجت قصيدة ابن الجهم، التي يقول فيها:

«عيون المها بين الرصافة والجسر».

فقال الفضل: هذا وزن سهل، وقافية سهلة، فإن قال لك الفضل:

أريد أن تعمل أربعة أبيات، يكون في كل بيت منها اسم الفضل، فما تصنع؟

ففكر قليلاً، وقال:

ولائمة لامتك يا فضل في الندى
فقلت لها: هل يقدح اللوم في البحر
أرادت لتثني الفضل عن عادة الندى
ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر
مواقع جود الفضل في كل بلدة
مواقع ماء المزن في البلد القفر
كأن وفود الفضل حين تحمّلوا
إلى الفضل وافَى عنده ليلة القدر

فقال: أحسنت، يا أخا العرب، أنا الفضل.

فنهض الأعرابي، وقبّل يده، وقال له الفضل.

ما الذي أمّلته مني؟

فقال له: ألف درهم أستعين بها على حالي.

فقال: يا غلام، ادفع له ألفاً وألفاً وألفاً، ولم يزل يكررها حتى انقطع نفسه، فحصي ذلك، فكان ستة عشر ألفاً، فأخذها، وانصرف».

الفضل من أصل فارسي، والصيد في فارس رياضة معروفة، ولا غرابة في أن يخرج الفضل للصيد، ولكن أن يدخل في الرحلة أعرابي، فهذا هو مربط الفرس.

وهناك في القصة مواقع ضعف، رغم حُسن السبك وحسن الشعر، إلا أن أول الآفات الصدفة، فالأعرابي كان يقصد الفضل، الصدفة أتت به إلى الفضل في الصحراء، والصدفة جعلته يلحظ المضارب، فكالمعتاد جذبت انتباهه، وهذا أمر مقبول، ومن المتوقع أن يحدث هذا.

وموقع الضعف الثاني أنه لما سلّم على الفضل بإمارة المؤمنين، وقال له: صه، أي اسكت، لم يسكت، ولكن انتقل إلى ما هو أقل، وهكذا إلى أن قارب منزلة الفضل، فدخل في مجال القصة، وبدء المتعة فيها، والمقطع الذي يري مقدرة الأديب في إظهاره أدبه، وثقافته.

على كل حال هذه صورة مقبولة في زمنها، إن لم تكن وقعت، فبالإمكان أن تقع.

والأفكار والصور تخايل ذهن الأديب، فيبحث عن أفضل جلباب فيلبسها إياه، وأجمل رداء فيوشّيها به، وأحسن مدخل ومخرج فيجعلها مقبولة لدى الناس، ويساعد على إشاعتها، ويبقى هو يرقبها بفخر، وهي تنتقل من مجتمع إلى مجتمع، ومن مجلس إلى كتاب.

وقصص الحب والعشق، واصطدام المحبين

والعاشقين بالعادات المتعارف عليها في البادية، فيها من الجاذبية ما يجعل الأديب يُفرغ فيها طاقته الأدبية، ويضع فيها جهده، لا يؤمن بعقبة تقف أمامه، ولا صخرة تعيق سيره، ففي جعبته من وسائل التغلب على ذلك ما يطمئنه على أن الأمور سوف تسير على ما يريد، والحقائق التي تصف واقعاً هي التي أدبياً توشك أن ترتطم بالعوائق، أما القصص المتخيلة فالخيال كفيل بها، حتى إن الخيال لا يمنع متأخراً أن يضيف إلى ما ابتدعه متقدم.

وهذه قصة يسوقها الجاحظ في كتابه: «المحاسن والأضداد، ص: ٧٢»[1].

«حكى ابن طفيل بن عامر العمري قال:

خرجت ذات يوم أريد الغارة، وكنت رجلا أحب الوحدة، فبينما أنا أسير إذ ضللت الطريق الذي أردته،

---

(١) دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

فسرت أياماً لا أدري أين أتوجه، حتى نفد زادي، فجعلت آكل الحشيش، وورق الشجر، حتى أشرفت على الهلاك، ويئست من الحياة، فبينما أنا أسير إذ أبصرت قطيع غنم في ناحية من الطريق، فملت إليها، وإذا شاب حسن الوجه، فصيح اللسان، قال لي:

يا ابن العم، أين تريد؟

فقلت: أردت حاجة لي في بعض المدن، وما أظنني إلا قد ضللت الطريق.

فقال: أجل، إن بينك وبين الطريق مسيرة أيام، فانزل حتى تستريح، وتطمئن، وتريح فرسك، فنزلت، فرمى لفرسي حشيشاً، وجاء إليَّ بثريد كثير، ولبن، ثم قام إلى كبش فذبحه، وأجج ناراً، وجعل يكبب لي، ويطعمني حتى اكتفيت.

فلما جننا الليل قام وفرش لي، وقال:

قم فارم بنفسك، فإن النوم أذهب لتعبك، وأرجع

لنفسك، فقمت، ووضعت رأسي، فبينما أنا نائم إذ أقبلت جارية لم تر عيناي مثلها قط، حسناً وجمالاً، فقعدت إلى الفتى، وجعل كل واحد منهما يشكو إلى صاحبه ما يلقى من الوجد به، فامتنع عليَّ النوم، لحسن حديثهما، فلما كان في وقت السحر قامت إلى منزلها.

فلما أصبحنا دنوت منه، فقلت له:

ممن الرجل؟.

قال: أنا فلان بن فلان، فانتسب لي فعرفته.

فقلت له: ويحك، إن أباك لسيّد قومه، فما حملك على وضعك نفسك في هذا المكان؟

فقال: أنا واللّه أخبرك: كنت عاشقاً لابنة عمي هذه التي رأيتَها، وكانت هي أيضاً لي وامقة، فشاع خبرنا في الناس، فأتيت عمي، فسألته أن يزوجنيها.

فقال: يا بني، واللّه ما سألت شططا، وما هي بآثر

عندي منك، ولكن الناس قد تحدثوا بشيء، وعمّك يكره المقالة القبيحة، ولكن انظر غيرها في قومك، حتى يقوم عمك بالواجب لك.

فقلت: لا حاجة لي فيما ذكرت.

وتحمّلت عليه بجماعة من قومي، فردّهم، وزوّجها برجل من ثقيف، له رئاسة وقدر، فحملها إلى ههنا ـ وأشار بيده إلى خيم كثيرة بالقرب منّا ـ فضاقت عليّ الدنيا برحبها، وخرجت في أثرها، فلما رأتني فرحت فرحاً شديداً.

فقلت لها: لا تخبري أحداً إني منك بسبيل.

ثم أتيت زوجها، وقلت:

أنا رجل من الأزد، ولي بصر بالغنم، إن رأيت أن تعطيني من غنمك شيئاً، فأكون في جوارك، وكنفك، فافعل.

قال: نعم، وكرامة.

فأعطاني مئة شاة، وقال لي:

لا تبعد بها من الحي.

وكانت ابنة عمي تخرج إليَّ كل ليلة في الوقت الذي رأيت، وتنصرف.

فلما رأى حسن حال الغنم أعطاني هذه، فرضيت من الدنيا بما ترى.

قال: فأقمت عنده أياماً، فبينما أنا نائم إذ نبهني، وقال:

يا أخا بني عامر.

قلت له: ما شأنك؟.

قال: إن ابنة عمي قد أبطأت، ولم تكن هذه عادتها، ووالله ما أظن ذلك إلا لأمر حادث، فحدثني، فجعلت أحدثه، فأنشأ يقول:

ما بال مَيَّة لا تأتي كعادتها
هل هاجها طرب أو صدَّها شغل

لكنّ قلبي لا يعنيه غيركمُ

حتى الممات، ولا لي غيركم أمل

لو تعلمين الذي بي من فراقكم

لما اعتذرت ولا طابت لك العلل

نفسي فداؤك قد أحللت بي حرقا

تكاد من حرّها الأحشاء تنفصل

لو كان عادية منه على جبل

لزل وانهدّ من أركانه الجبل

فوالله ما اكتحل بغمض حتى انفجر عمود الصبح، وقام، ومرّ نحو الحي، فأبطأ عني ساعة، ثم أقبل، ومعه شيء، وجعل يبكي عليه، فقلت له:

ما هذا؟

قال: هذه ابنة عمي، افترسَهَا السَّبع، فأكل بعضها، ووضعها بالقرب مني، فأوجع، واللّه، قلبي، ثم تناول سيفه، ومرّ نحو الحي، فأبطأ هنيهة، ثم

أقبل إليَّ، وعلى عاتقه ليث كأنه حمار.

فقلت له: ما هذا؟

قال: صاحبي.

قلت: وكيف علمتَه؟

قال: إني قصدت الموضع الذي أصابها فيه، وعلمت أنه سيعود إلى ما فضل منها، فجاء قاصداً إلى ذلك الموضع، فعلمت أنه هو، فحملت عليه، فقتلته.

ثم قام فحفر في الأرض، فأمعن، وأخرج ثوباً جديداً، وقال:

يا أخا بني عامر، إذا أنا متُّ، فادرجني معها في هذا الثوب، ثم ضعنا في هذه الحفرة، وهلَّ التراب، واكتب هذين البيتين على قبرنا، وعليك السلام.

كنّا على ظهرها والعيش ذا مهل

والدهر يجمعنا والدار والوطن

فخانتا الدهر في تفريق ألفتنا
واليوم يجمعنا في بطنها الكنف

ثم التفت إلى الأسد، وقال:

ألا أيها الليث المدلّ بنفسه
هبلت، لقد جرّت يداك لنا حزنا
وغادرتَني فرداً وقد كنتُ آلفا
وصيَّرتَ آفاق البلاد لنا سجنا
أأصحب دهراً خانني بفراقها
معاذ إلهي أن أكون له خدنا

ثم قال: يا أخا بني عامر إذا فرغت من شأننا، فصح في أدبار هذه الغنم، فردَّها إلى صاحبها.

ثم قام إلى شجرة، فاختنق حتى مات، فقمت، فأدرجتهما في ذلك الثوب، ووضعتهما في تلك الحفرة، وكتبت البيتين على قبرهما، ورددت الغنم إلى صاحبها، وسألني القوم فأخبرتهم الخبر، فخرج

جماعة منهم، فقالوا:

واللّه لننحرنَّ عليه تعظيما له.

فخرجوا، وأخرجوا مئة ناقة، وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا، فنُحرت ثلاث مئة ناقة.

.. ثم انصرفنا».

قصة تشد من يقرؤها، اجتمعت فيها العناصر التي تجمع عادة في قصص الحب في البادية، إلا إن فيها جديداً، وهو أكل السبع للفتاة، وهو أمر محزن، ولكنه مناسب لإنهاء قصة الحب التي لم يُر أن تدوم، حتى يشيب الشابان، ومن الأمور الغريبة انتحار الشاب، ولم تكن العادة كذلك.

يوسفنا أن نضيع شيئاً من المتعة بلفت النظر إلى مداخل الطعن في القصة، فالصدفة، وهي عنصرنا الأول في كشف النحت والتصنّع، هي التي جعلت ابن طفيل يضيع، ثم يجد هذا الشاب العاشق،

وينسى الغارة[1] التي خرج، أساساً، من أجلها، وليس له من عدة الغارة إلا فرسه، وقلة معرفته بالطريق.

والحبيبة، وهي حديثة عهد بزواج، تترك خدرها، ولا تعود إلا قرب الصبح، نسي القاص زوجها، وأن المفروض أن يكون معها، والحبيبة تخرج كل ليلة، وتمر بالحي، ولا يفطن لها أحد.

ويأتي حبيبها ببقية جثتها، وما فيها من دماء، وأهوال، ثم فيما بعد يأتي حاملاً السبع بعد قتله، وهو في حجم حمار، ينوء به، ثم فيما بعد يخاطبه بأبيات باردة لا حرارة عاطفة فيها.

ولكنها قصة، وفيها متعة، ولكن هذه البقع المظلمة فيها تقلل من فرحتنا بها، خصوصاً ما تكون فيه رائحة المدينة، لا البادية، مثل كتابة الاسم على القبر، ومثل ذبح النياق، وعددها مئة في أول الأمر،

(١) لعل الغارة هنا الخروج بعيداً عن المساكن، ليعطي فرسه فرصة جري، لابد منها، وهما في حاجة إليها.

ثم صارت ثلاث مائة، وأين من سيأكل، وفي أي أمر كان إعجاب القبيلة بالرجل، هل في حبه، وتفانيه في حبيبته، أو في قتله السبع؟ اللّه أعلم.

ويبدو أن وجود عاشق، ثم مجيء من يؤنسه أمر فيه جاذبية لدى كُتَّاب القصص التي تجري في البادية، فهناك قصة مماثلة لهذه القصة التي ذكرناها، وقد أوردها الجاحظ[1]:

«قال الحسن الجرجاني: حدّثني سهم بن عبدالحميد الحنفي، قال:

خرجت من الكوفة أريد بغداد، فلما نزلت بسط غلماننا، وهيؤا غداءنا، فإذا نحن برجل حسن الوجه والهيئة على برذون فاره، فصحت بالغلمان فأخذوا دابته، فدعوت بالغداء، فبسط يده غير مُحتشم، وما أكرمته بشيء إلا قبله.

(١) المحاسن والأضداد، ص: (١٩٧).

وكنا كذلك إذ جاء غلمانه بثقل كثير، وهيئة جميلة، فتناسبنا، فإذا هو طريح بن اسماعيل الثقفي، فارتحلنا في قافلة منا لا يدرك طرفاها، فقال طريح:

ما حاجتنا إلى هذا الزحام؟ وليست بنا إليهم وحشة، أو علينا خوف، فإذا خلونا بالخان والطرق كان أروح لأبداننا.

قلت: ذلك إليك.

فنزلنا من الغد الخان، وتغدينا، وإلى جانبنا نهر ظليل بالشجر، فقال:

هل لك أن نستنقع فيه؟

فمررنا إليه، فلما نزع ثيابه، إذا بين جنبيه آثار ضرب كثير، فوقع في نفسي منه شر، فنظر إليَّ، ففطن، وتبسّم، وقال:

قد رأينا ذعرك بما ترى، وحديث ذلك يجري إذا سرنا بالعشيّة.

فلما سرنا، قلت له: الحديث.

قال: نعم، قدمت من عند الوليد بن يزيد بالغناء واليسار، وكتب إلى يوسف بن عمر، فلما أتيته ملأ يدي خيراً، فخرجت مبادراً إلى الطائف، فلما امتد بي الطريق، وليس يصحبني فيه أحد، عَنَّ لي أعرابيّ، على قعود له، فحدّث أحسن الحديث، وروى الشعر، فإذا هو شاعر، فقلت:

من أين أقبلت؟

قال: لا أدري.

قلت: وما القصة؟

قال: أنا عاشق لامرأة قد أفسدت عليَّ عيشي، وقد حذرني أهلها، وجفاني لها أهلي، وإنما أستريح بأن أنحدر إلى الطريق مع منحدر، وأصعد مع مصعد.

قلت: فأين هي؟

قال: ننزل غداً بإزائها.

فلما نزلنا، أراني طريقاً عن يسار الطريق.

فقال: ترى ذلك الطريق؟

فقلت: أراه.

فقال: أترى الخيم التي هناك؟

فقلت: نعم.

قال: فإنها في الخيمة الحمراء.

فأدركني أريحية الحدث، فقلت:

واللّه إني آتيها برسالتك.

فمضيت حتى انتهيت إلى الخيم، فإذا امرأة ظريفة جميلة، كأنها مهرة عربية، فذكرته لها، فزفرت زفرة كادت تنتقض أضلاعها، قالت:

أَوَحَيٌّ هو؟

قلت: نعم، تركته في رحلي، وراء هذا الطريق.

قالت: بأبي أنت وأمي، أرى لك وجهاً حسناً، يدل على الخير، فهل لك في أمر.

قلت: نعم، فقير إليه.

قالت: إلبس ثيابي، فأقم مكاني، ودعني حتى آتيه، وذلك عند مغيربان الشمس، فإنك إذا أظلم الليل أتاك زوجي، فقال لك:

يا فاجرة، ويا هنة ابنة الهنة، فيوسعك شتماً، فأوسعه صمتاً، ثم يقول: في آخر كلامه:

أقمعي سقاءك يا عدوّة اللّه، فضع القمع في هذا السقاء، وإياك وهذا السقاء الآخر، فإنه واهٍ.

قلت: نعم.

فأجبتها إلى ما سألت، فجاء الزوج على ما وصفت.

وقال: أقمعي سقاءك.

فحيّرني اللّه أن تركت الصحيح، وقمعت الواهي، فما شعر إلا باللبن يتسبسب بين رجليه، فعدا إلى كسر الخيمة، وحل متاعه، وتناول رشاء من قدٍّ

مدبوغ، ثم ثناه باثنتين، فجعل لا ينقّي رأساً ولا وجها ولا رجلا، حتى خشيت أن يبدو له وجهي، فتكون الأخرى، فألزمت وجهي الأرض، فعمل بظهري ما ترى.

فلما تغيب عني جاءت المرأة باكية، فرأت ما بي من الشر، واعتذرت، وأخذت ثياب، وانصرفت».

قصة صحراوية ممتعة، حوت جميع العناصر التي اعتدنا عليها في عشق الصحراء، ولكن فيها إبداعاً يميزها، ويجعلها تقف على قدميها، وتضيف إلى هذه القصص بعض اللمسات الجميلة.

أما المداخل فكثيرة ومنها لعبة الصدفة، وإذا تركنا صدفة التقابل، ثم الرفقة، فلا نستطيع ترك تهيئة النهر، ليكون منطلقا للقصة، ثم في أثناء القصة نأتي إلى الأعرابي، الذي كان على بعيره، مزروعا في ذلك المكان ليجده «طريحاً»، فيدخل الكاتب القصة في

مرحلة جديدة.

والزلّة الكبرى أن «طريحاً» عرض على الأعرابي مساعدته قبل أن يطلب منه ذلك.

على كل حال هذه هي الصحراء، وهؤلاء هم أبناؤها، وهذه نظرة الحضري إليها وإليهم، وإلى العشق فيها والحب، بهذا أوحت الصحراء، فجاءنا هذا الأدب الممتع.

وفي المرجع نفسه: «المحاسن والأضداد»[1] قصة تلي هذه مباشرة، تعطي صورة أخرى، تتداخل مع هذه في بعض الجوانب، وتنفصل في جوانب أخرى، وهذه هي:

«حدّث محمد بن صالح بن عبدالله بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، رضي اللّه عنه، بسر من رأى سنة أربعين ومئتين، وكان حُمل من البادية إلى المتوكل، فأطلقه.

---

(١) المحاسن والأضداد، ص: (١٩٨).

وكان عربياً فصيحاً، فعجب منه، وكان حسن الوجه نجيباً، قلّ ما رأيت في الفتيان مثله.

قال: كان منّا فتى يقال له الأشتر بن عبدالله، وكان سيد بني هَلال، وأحسنهم وجهاً، وأسخاهم كفّاً، وكان معجباً بجارية يقال لها جيداء، بارعة الجمال، فلما اشتهر أمرهما، وظهر خبرهما، وقع الشر بين أهل بيتيهما، حتى قتل بينهما القتلى، فافترقوا فريقين.

فلما طال على الأشتر البلاء جاءني يوماً وقال:

يا نُمير، هل فيك خير؟

قلت: عندي ما أحببت.

قال: فساعدني على زيارة جيداء.

قلت: بالحب والكرامة، فانهض إذا شئت.

قال: فركبنا، وسرنا يوماً وليلة، والغداة حتى المساء، فنظرنا إلى أدنى سرب، فأنخنا رواحلنا في

شعب، وقعدنا هناك.

وقال نمير، إذهب، وانشد، واذكر لمن يلقاك أنك طالب ضالة، ولا تعرض بذكري بشفة أو لسان، إلى أن تلقى جاريتها فلانة، راعية الضأن، فتقرئها مني السلام، وتسألها عن الخبر، وتعلمها بمكاني.

قال: فخرجت، لا أتعدى ما أمرني به، حتى لقيت الجارية، فأبلغتها الرسالة، وأعلمتها بمكانه، وسألتها عن الخبر، فقالت:

هي مشدد عليها، محتفظ بها، وعلى ذلك فموعدكما عند الشجيرات اللواتي عند أعقاب البيوت، مع صلاة العشاء.

فانصرفت، فأخبرته، ثم قدنا رواحلنا، حتى أتينا الموعد، في الوقت الذي وعدتنا فيه، فلم نلبث إلا قليلا حتى إذا جيداء تمشي، فدنت منا، فوثب إليها الأشتر، فتصافحا، وسلّم عليها، ووثبت مولياً عنهما.

فقالا: أقسمنا عليك إلا رجعت، فوالله ما بيننا من ريبة ولا قبيح نخلو به دونك، فانصرفت إليهما، وجلست معهما.

فقال الأشتر: ما فيك حيلة يا جيداء، فنتزود منك الليلة؟

قالت: لا والله، ما إلى ذلك سبيل، إلا أن أرجع إلى الذي تعلم من البلاء والشر.

فقال: لابد من ذلك، ولو وقعت السماء على الأرض.

قالت: فهل بصاحبك خير.

قلت: بلى، وهل الخير إلا عندي، فاسألي ما بدا لك، فإني منته إليه، ولو كان في ذلك كله ذهاب نفسي.

فألبستني ثيابها، وأخذت ثيابي، ثم قالت: إذهب إلى خبائي، فاخل في ستري، فإن زوجي

يأتيك مع العتمة، فيطلب منك القدح، ليحلب فيه، فلا تعطه من يدك، فكذلك كنت أفعل، فيحلب، ثم يأتيك بالقدح ملآنا لبنا، فيقول:

هاك!.

فلا تأخذه منه حتى تطيل عليه نكدك، ثم خذه أو ذره حتى يضعه، ثم يستبد بردائه، ولست تراه حتى يصبح.

فذهبت، ففعلت ما أمرتني به، حتى جاء بالقدح فيه اللبن، فأطلت نكدي عليه، ثم أهويت لآخذه، فاختلفت يدي ويده، وانكفأ القدح، فاندفق منه اللبن، فقال:

إن هذا لطماح مفرط، وضرب يده إلى جانب الخباء، فاستخرج سوطاً، فضربني مقدار ثلاثين سوطا، حتى جاءت أمه وأخواته، فانتزعوني منه، ولا واللّه ما فعلوا ذلك حتى زايلتني روحي، وهممت أن

أوجره بالسكين.

فلما خرجوا عني، وهو معهم، قعدت، كما كتب اللّه، فما لبثت أن جاءت أم جيداء، فحدثتني، وهي تحسبني ابنتها، فألقيتها بالسلوت، وتغطيت بثوبي دونها.

فقالت: يا بُنَيَّة، إتقي اللّه، ولا تتعرضي للمكروه من زوجك، فذلك أولى بك.

ثم خرجت من عندي، فقالت:

سأرسل إليك أختك تؤنسك، وتبيت الليلة عندك، فلم ألبث أن جاءت الجارية تبكي، وتدعو على من ضربني، وأنا لا أكلمها، ثم اضطجعت إلى جنبي، فلما استمكنت منها شددت يدي على فمها، وقلت:

يا هذه، تلك أختك مع الأشتر، وقد قُطع ظهري بسببها، وأنت أولى من ستر عليها، فاختاري لنفسك ولها، فواللّه، لئن تكلمت لتكونن فضيحة شاملة، ثم رفعت يدي عن فيها، فاهتزت مثل القصبة من الروع،

وباتت معي...».

ولا أريد أن أتم القصة، لأن في نهايتها من عدم العفة ما لا يتماشى مع طهارة العشق في البادية، وما حرص الرواة والقصّاص على أن يبرزوه.

ولم آت بالثانية إلا لأرى التشابه بين هذه القصص، إما إنها في الأصل واحدة، ولكن ضعف ذاكرة الراوي تجعله يتصرف، أو لعله يُحوِّرها لهدف؛ كأن يريد أن يبجّل شخصاً، أو قبيلة، أو يدني من قدرهما.

على كل حال مادمنا في مجال البحث عن أسباب الاختلاف هذه، وأسباب النحل، فلعل بعض الشواهد تدل على أن من أسباب النحل تسلية الحكام والمسؤولين، ولعل الأديب يهيئ مثل هذه القصص، فتكون معدَّة عندما تُطلب التسلية، أو عند القلق، والسهر، وعدم القدرة على النوم.

والقصة الآتية تعطي ملامح لهذه الأسباب، والأصمعي أديب ليس بعيداً عن شبهة النحل، وتأليف القصص، وقصصه فيها ما هو غريب، وما هو مدهش، وهما أمران يشدان السامع، ويأخذان بلبّه، والقصة من كتاب الجاحظ «المحاسن والأضداد»[1]:

«أَرِقَ الرشيد ذات ليلة، فوجه إلي عبدالملك الأصمعي، وإلى الحسين الخليع، فأحضرهما، وشكا إليهما مدافعة نومه، وشدّة أرقه، وقال لهما:

علّلاني بأحاديثكما، وابدأ أنت يا الحسين:

قال: نعم، يا أمير المؤمنين:

خرجت في بعض السنين منحدراً إلى البصرة وممتدحا حال سليمان، فقصدت محمد بن سليمان بقصيدتي..

ويستمر في حديث الرحلة، وأنه عطش فطرق

(١) ص: (٢٠٣).

باباً فخرجت له فتاة، أطنب في وصفها، ثم بيّن أنها عاشقة، وأن معشوقها غاضب عليها لخطأ ارتكبته، جعله ينفر منها، ثم تستمر القصة من جزء طريف إلى جزء طريف، إلى أن يأتي الفرج وتنتهي القصة.

ويبدو أنها ألفت تسلية للرشيد، ولهذا أسهب القاص في التفاصيل، وأبدع في المفاجآت، وقد تركتُها لطولها ولما يتخللها من صور ليست عفيفة.

والأصمعي، كما سبق أن قلت، إما أنه يضع أو أنه يوضع على لسانه، وقد بيّنا سابقاً تقارب ما يأتي منه مع ما يقص عادة، وقارنّا بين ما جاء به على لسان فتاة في المطاف وما كان يدعو به أبو السائب، وقد عثرت على قصة، اليوم، تؤكد أنه يعيد الصور نفسها بأسلوب جديد، وهذه هي القصة، وجاءت في «الموشّى»(١):

---

(١) ص: (١٠٩).

«قال الأصمعي:

رأيت جارية بالطواف، وهي تقول:

لن يقبل اللّه من معشوقة عملا
يوما، وعاشقها حيران مهجور
وليس يأجرها في قتل عاشقها
لكن عاشقها لا شك مأجور

فقلت: يا جارية، أفي هذا المقام! أما حياء فيردعك! فأنشأت تقول:

بيض أوانس ما هممن بريبة
كظباء مكة، صيدُهنَّ حرام
يُحْسَبْنَ من لين الكلام زوانيا
ويَصُدُّهُنَّ عن الخَنَا الإسلام

ومن يقرأ البيتين الأولين يتعجب أن يأتي هذا القول من المعشوقة، والأولى أن يأتي من العاشق، والبيتان الأخيران لا دخل لهما بما اعترض عليه الأصمعي.

ونعود إلى أحد أسباب تأليف القصص عن البادية، وأنه أحياناً لتسلية الخلفاء أو الحجاج، خاصة إذا أصابهم القلق، وطرد عن أعينهم النوم، فهناك قصة طويلة في «المحاسن والأضداد»[1]، للجاحظ، ولا داعي لذكرها، ولكنها تؤكد أن هؤلاء الرؤساء إذا طار عن أعينهم النوم، يبحثون عمن يسليهم، ففي هذه نجد أن الحجاج لما أرق في إحدى الليالي، بعث إلى ابن القرّية، ليحدّثه حديثا، حسب تعبيره، يقصّر عليه طول الليل، فجاء له بقصة تُري محاسن مكر النساء.

وعن الحرص على قص طرائف القصص على الخلفاء يأتي التأليف، ويطول الحديث في هذا ما أمكن، والصحراء، وابن الصحراء، والقبائل، والأمطار هي خير مستوحى في هذا الصدد، ومما أطرف به خليفة عن طريق قصة صحراوية، أُعدَّ لها مسرح يتلاءم معها

(١) ص: (١٧٤).

كالمعتاد، عند تأليف هذه القصص، أو وقوعها في النادر في الحقيقة، القصة الآتية، ونهايتها تبين أن الهدف إضحاك الخليفة، وإدخال السرور إلى نفسه، والترفيه عنه، بشيء غريب طريف:

«قال سعيد بن سلم الباهلي[1]:

انطلقت حاجاً، فلما كنت بالبادية، تقدَّمت القباب والكنائس[2]، وكنت أدبُّ خلف الأثقال على حمار لي، فمررت بأعرابي، فقال لي:

لمن هذه القباب؟

فقلت: لرجل من باهلة.

قال: تا الله! ما كنت أظن أن الله ـ تعالى ـ يعطي باهلياً كل ما أرى.

قال: فأعجبني كلامه.

---

(١) كان والياً على البصرة، وكان موثوقاً به من الدولتين (الأموية والعباسية)، وكان من عقلاء الأمراء، عادلاً، حسن السيرة، توفي عام ٤٩هـ كما يقول صاحب الأعلام.

(٢) الكنائس: النساء في الهوادج، قياساً على كناس الظبي، أي اختفاؤه بين الشجر.

فقلت له أتحب أن تكون باهلياً، وأنَّ هذه القباب، والكنائس لك؟

قال: لا، واللّه.

فقلت: أفتحب أنَّك باهلي، وأنَّك خليفة؟

قال: لا، واللّه، ما يسرني اللؤم بشيء من الدنيا.

قلت: أفتحب أنك باهلي، وأنك من أهل الجنّة؟

قال: أي واللّه، بشرط:

قلت: وما ذاك الشرط؟

قال: لا يعلم أهل الجنّة أني باهليّ.

فأعجبني ظرفه، فرميت له بصرة دراهم،وقلت: خذها، وأنا باهلي.

فنثرها في الرمل، وقال:

واللّه ما أحبّ أن ألقى اللّه ـ تعالى ـ ولباهليّ عندي يد.

فحدثت هذا الحديث هارون الرشيد حتى اضطرب

برجليه».

آفة هذه القصة أتتها من ناحيتين:

الأولى: الصدفة، فسعيد بن سلم تأخر عن الركب، وليست العادة إلا لسبب طارئ، الصدفة الثانية أوصلته إلى رجل يسأل عن القافلة، ولمن هي، فيكون المسؤول المجيب هو سعيد بن سلم الباهلي! والصدفة الثالثة أن الأعرابي ممن يكره باهلة، ولم يبين السبب، ولا من أي قبيلة هذا الأعرابي، ولو عرفنا قبيلته فربما تتبعنا مصدر العداوة.

والثانية: هذا الحوار المتناسق، حسن التتابع، متلاحم الأجزاء، جيد السبك، يخطو بخطوات متئدة، وبإتقان تام نحو الهدف.

والثالثة: أن الأمر انتهى بإخبار الخليفة بالقصة، وهذا يوحي بأنها مؤلفة للترفيه عن الخليفة الذي جعله يفحص برجليه من الضحك.

ومن جوانب الإتقان فيها، مما ساعد إلى إيصالها إلى الهدف المقصود أنها ليست في صالح القاصّ، بل هي هجوم ملحّ على قبيلته، وهذا يظهره بمظهر المتجرد، الراوي لحقيقة لا شك فيها، مما يجعلها مقبولة، ولا تظهر علامات النحل فيها بسهولة.

وهذه خطة اتبعها الجاحظ، فهو أحياناً إذا طرأت في ذهنه فكرة، واستحسنها، وضعها في قصة، وأركبها على نفسه، وأغلب الأحيان تكون من القصص الهازلة.

والأدب العربي مليء بالقصص والأشعار التي تمجد بعض القبائل، ومثلها مما فيه ثلب وهجاء لقبائل أخرى، بعضها يأتي دامغاً، فَيَسم القبيلة وسماً لا تتخلص منه أبداً، وإذا تخلصت فبصعوبة، ولابد أن تبقى بعض الندوب،ولا تكاد تجد قبيلة لم تصبغها قبيلة معادية بصبغة تشوِّه أديم وجهها، وتترك فيها كَلَفَاً، ينحدر في الرواية مع الأجيال حتى يصل إلينا.

ويأتي حبك القصة، التي أريد لها أن تَصِم قبيلة بوصمة دامغة، متقناً، حتى إن الناقد يحتار فِيه، فإن عرف ما بين القبائل من الطعن والهجاء وما يختفي وراء ذلك، جزم بأن القصة مفتعلة، وأن وراءها عداء لعل أصوله تعود إلى أيام الجاهلية، وتعميم رذيلة على قبيلة كاملة فيه من المزالق ما فيه، خاصة أن هناك من أفرادها من عُرفوا فيما بعد بصدق الجهاد، وحسن البلاء في الإسلام، وتواتر عنهم فيض الكرم، والنخوة والمروءة.

والقصة السابقة، إن كانت صحيحة، فأمرها عجيب! رجل يقص قصة تلمسه وقومه، لمسة أتت على صافي اللحم، حتى كادت تبري العظم، في حين أنه كان في غنى عن ذلك، لأنه لم يكن معه أحد يمكن أن يشي بما قيل، أو ينقل ما دار من حوار، فيه إتقان من تسلسل فكر، وإصابة هدف، وسرعة بديهة،

وولوغ في قاع بؤرة الهجاء والثلب.

وإن لم تكن صحيحة، فإن مؤلفها قد أجاد إجادة متناهية، إذ جاء بتعدد النقائص في القبيلة على لسان أحد أفرادها البارزين في المجتمع، ومن أعمدة الحكم، حتى أن قارئها ينسى أن هناك بصيص نور يهدي إلى أنها مؤلفة، وأن سعيد بن سلم لم يروها، وأن قبيلة باهلة براء من الصورة التي رسمت عنها.

وهناك وقفتان أمام ما ذكرت:

الأولى: أن هذه القصص المفتعلة، وهذه الأفكار المتعاركة، فيها من المتعة ما يجعل المرء، أحياناً، يغضي عن صراخها الذي يعلن عدم صحتها، ويَصُمُّ أذنه مختاراً، حتى لا تُنقص فكرةُ النحل متعته، ولكن تبقى مع التأكد من النَحل صورة مهمة، وهي أن القصة التي مثل هذه، وكتبت في زمن ليس بعيداً عن حياة أبطال القصة، أتت ممثلة تمثيلاً صادقاً لما يفكر فيه ذلك

المجتمع، وما يغلي فيه، وفي بوتقته من ضغائن، وعداوات، وأحقاد أحياناً، وحسد أحياناً أخرى.

والثانية: قلت إنه لم يكن هناكً من يشي بين راوي القصة والطاعن في القبيلة، مما يتوقع أن يطلب المهجو العافية منه، فيخفي الأمر.

هذا ذكَّرني بقصة حديثة، فيها لمز لمنطقة في نجد، وهذه هي القصة، مع عدم ذكر اسمي الرجلين اللذين دارت حولهما القصة:

كان الملك عبدالعزيز ـ رحمه اللّه ـ عندما يزور منطقة من المناطق يُدعى إلى العشاء، أو القهوة عند أميرها، وكبار أهلها، ولأنه، لقصر المدة التي يقضيها هناك، لا يستطيع شخصياً أن يُلبي كل الدعوات، فينيبُ لبعضها أحد أبنائه، ويصاحب ابنه، عند الاستجابة لإحدى هذه الدعوات، أحد أبناء أمير المدينة، أو إخوانه، أو أقربائه، ليدله على بيت المضيف، وكانت

الزيارة لإحدى مدن القصيم، وكان الملك عبدالعزيز مدعوّاً بعد صلاة الظهر عند أحد كبار المدينة، ولكن، لارتباطه بدعوة أخرى أناب ابنه الأمير محمد بن عبدالعزيز ـ رحمه اللّه ـ ورافقه في سبيل خدمته، وإيصاله لبيت الداعي، أحد أبناء أمير البلدة، وكان الناس في تلك الأيام، بعد صلاة الظهر، يجلس منهم أناس على مقاعد من الطين بجوار المساجد، وكانت المدينة عندما يزورها الملك عبدالعزيز تمتلئ بالناس، منهم من جاء معه في رحلته تلك، ومنهم من جاء يطلب رفده، أو السلام عليه من سكان المدن أو القرى القريبة، ولهذا كان الغرباء من غير أهل المدينة كثيرين، فمر الأمير محمد بن عبدالعزيز ـ رحمه اللّه ـ ورجال جلوس على المقاعد بجوار أحد المساجد، ولم يقف أحد منهم، كما يقتضيه الأدب.

وبعد أن مشى الأمير عشرة أمتار تقريباً رجع

مرافقه إلى هؤلاء الرجال الجالسين، وعاتبهم على عدم قيامهم عند مرور الأمير بهم، والسلام عليه، فاعتذروا بأنهم لم يعرفوه، ولم يعرفوا أنه أمير، وقالوا إن كل الوافدين عليهم ثياب جميلة، ومشالح مقصّبة (دربوجة)، وقالوا لو أنهم عرفوه لسعدوا بالتشرف بالسلام عليه، وعلّق أحدهم ملتفتاً لزملائه قائلاً:

«الحقيقة، أن على الإنسان أن يقف للغريب حتى لو كان من منطقة كذا».

وذكر اسم إحدى مناطق نجد، فسمعهم أحد «خويا» الأمير محمد ـ رحمه الله ـ وكان معه «خوي» آخر من تلك المنطقة، ففرح بتلك الكلمة، وقال إنه سينقلها للأمير، فسارع الذي من البلد المذكورة، وسبقه، وأخبر الأمير، وكان الأول اعتبرها «صيدة» يُتحف بها الأمير إغاظة لزميله، إلا أن زميله سبقه، وأخبر الأمير بهجو بلاده.

هذه القصة رواها لي أخو الذي من المنطقة المهجوّة ـ رحمهم اللّه جميعاً ـ.

وقصصت القصة على أحد الزملاء، وهو من تلك المنطقة المهجوّة، فقال لي: هناك أخرى فيها هجو لنا، يقول الناس: «لاتترك مكانك وحولك رجل من منطقة كذا»..! أشهد أن هذا الزميل شجاع، لأنه أهدى هجو منطقته دون طلب، ومثله في الشجاعة الذي نقل الهجو للأمير!.

والشيء بالشيء يُذكر، فقد قصَّ عليَّ جار لي ـ رحمه الله ـ وهو كبير في سنّه ورب أسرة كريمة، قال: عُيِّن، في إحدى بلدان القصيم، قاض، ومثل هذا عندما يُعين في بلدة تتبعه مدن وقرى أخرًى، فسمع أهل بلدة راوي القصة بتعيين هذا القاضي، وأرادوا أن يتحاكموا عنده، فاختاروا وقت القيلولة، وهو وقت ملائم لهم، ولكنه غير ملائم له، لأنه وقت راحته.

طرقوا عليه الباب، فقال:

قيْلُوا، فإن الشياطين لا تقيل.

قَالوا: من خُصص له مئتا وزنة تمر، ومئتا صاع قمح فإنه لا يقيل (هذه هي مرتب القاضي مقابل عمله سنوياً).

قال: من أيِّ بلد أنتم؟

قالوا: من بلدة كذا... (وهي بلدة راوي القصة).

قال: لقد تيقنت من ذلك، لأني أعرف أنه ليس فيكم إلا أعوج.

قالوا: وهل يأتيك إلا الأعوج؟!

قال: والزبدة؟

قالوا: ليس هناك زبدة من غير خضّ، اخرج.

فاضطر بعد هذا الجدل المنتظم، المتسلسل أن يخرج إليهم، ويسمع منهم، ويقضي بينهم ـ رحمهم اللّه جميعاً ـ فلابد أنهم الآن كلهم تحت الثري.

في الحديث عن التمر والقمح فائدة جانبية لنا، فقد أعطتنا فكرة عما كان يتقاضاه القاضي في ذلك الزمن، ومثله إمام المسجد، الذي كان لا يتقاضى إلا تمر نخيلات «حسو» المسجد، وقد يعطي قاضي البلدة المؤذن حصيلة نخلة منها، رحمهم اللّه رحمة الأبرار.

نعود إلى قصة سعيد بن سلم الباهلي، فقد يكون سعيد ألفها ليؤانس بها الخليفة هارون الرشيد، ومن هذا الباب يدخل بصيص نور نرى تحت ضوئه علامة النحل وأسبابه.

على أي حال، هناك العديد من القصص التي تروى انفصال خليفة أو أمير أوقائد عن جماعته، في الصحراء، كما سبق أن قلنا، فتأتي الصدفة بأعرابي، ويدخل معه في حديث طريف، ونقاش غريب ممتع، فيه من التسلية ما فيه، وفيه من الطرافة والعجب ما ينسي ما قد يكون شابه من علامات الوضع، ودلائل النحل،

ولو جمعت القصص التي بهذه الصفة، ووضعت في كتاب ودرست متجاورة، لظهر منها حقائق ما كان بالإمكان الوصول إليها وهي متفرقة.

بقي صوت، ليس خافتاً، يقول: إن هذه القصة لم يروها سعيد لهارون الرشيد، ولم يؤلفها، وإنما اختلقها أحد أفراد قبيلة معادية لباهلة، وأجاد إخفاء أثر خطوته إلى فعلته بأن جعل المتكلم رئيسا من رؤساء باهلة، أظهره بمظهر المتسامح، وأغراه بقص هذه القصة، التي ليست في صالحه، ولا في صالح قبيلته، حرصه على تسلية الخليفة، الذي جعله يطرب مما سمع حتى إنه أخذ يفحص برجليه من الضحك.

على أي حال ناحل القصة يعرف أن رواية الشخص لجوانب ضعف فيه أمر معترف به، فالجاحظ معروف عنه أنه أحياناً إذا استحسن فكرة صاغها في قصة، وأركبها على نفسه، وأغلب الأحيان تكون من

القصص الهازلة.

وقد لا يأتي الناحل بابن الحاضرة إلى الصحراء، وإنما يأتي بابن الصحراء إلى المدينة، ومعه رائحة الصحراء، مصدر الطرائف، وهذا ابن الجوزي[1] يورد قصة عن الجاحظ، يقول فيها:

«قدم أعرابي من أهل البادية على رجل من أهل الحضر، وكان عنده دجاج كثير، وله امرأة وابنان وابنتان.

قال: فقلت لامرأتي: إشوِ لي دجاجة، وقدميها لنا نتغدى بها.

فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً، أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي، فدفعنا إليه الدجاجة، فقلنا: «اقسمها بيننا»، نُريد بذلك أن نضحك منه.

فقال: لا أحسن القسمة، فإن رضيتم بقسمتي

---

(١) «كتاب الأذكياء» ص: (٧٢) دار ابن حزم، سندباد للترجمة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

قسمت بينكم.

قلنا: فإنا نرضى.

فأخذ رأس الدجاجة، فقطعه، ثم ناولنيه، وقال:

الرأس للرئيس.

ثم قطع الجناحين، فقال:

والجناحان للابنين.

ثم قطع الساقين، فقال:

والساقان للإبنتين.

ثم قطع الزمكى، وقال:

العجز للعجوز.

ثم قال: الزور للزائر.

فأخذ الدجاجة بأسرها.

فلما كان من الغد قلت لامرأتي:

إشو لنا خمس دجاجات.

فلما حضر الغداء، قلنا:

اقسم بيننا.

قال: أظنكم وَجدتم من قسمتي أمس.

قلنا: لا، لم نَجد، فاقسم بيننا.

فقال: شفعاً أو وتراً؟

قلنا: وتراً.

قال: نَعم، أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة.

ورمى بدجاجة، ثم قال:

وابناك ودجاجة ثلاثة، ورمى الثانية.

ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة، ورمى الثالثة.

ثم قال: وأنا ودجاجتان ثلاثة.

فأخذ الدجاجتين، فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه، فقال:

ما تنظرون، لعلكم كرهتم قسمتي؟ الوتر ماتجيء إلا هكذا.

قلنا: فاقسمها شفعا.

فقبضهن إليه، ثم قال:

أنت وإبناك ودجاجة أربعة، ورمى إلينا بدجاجة، والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة، ورمى إليهن بدجاجة، ثم قال:

وأنا وثلاث دجاجات أربعة، وضم إليه ثلاث دجاجات، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال:

الحمد للّه، أنت فهّمتها لي».

فكرة حسابية طرأت على ذهن كاتب حضري، فبحث عن مشجب طريف مشوّق، فما وجد خيراً من أعرابيٍ، يجلبه من الصحراء، ويجلسه مع أسرته رجالاً ونساء، ويُجري على لسانه هذه القصة الطريفة، وأظهر أن الأعرابي ضحك منهم، وكان هدفهم الضحك منه!.

ومن القصص التي تشهد بنفسها على افتعالها، وأنها إنما تؤلف حسب الطلب، ومقتضى الظرف والحال، ولإزجاء الوقت، أو إدخال السرور على

مسؤول كبير مهم، بدءاً في عرض ما يبهجه، أو استجابة لرغبة يبديها، وقصتنا الآتية هي من كتاب: «الهفوات النادرة»[1]:

«قال: خالد بن عبدالله القسري يوماً، وقد اجتمع عنده جماعة من سمّاره وخواصّه:

حدثوني عن الحب حديثاً لا فُحش فيه.

فقال أبو حمزة اليماني:

كان فتى من العرب يسمى مالك بن نصر، له بنت عم، يحبُّها وتحبُّه، يقال لها الرَّباب، وكانت ذات جمال، وكمال وظرف وعقل، فبينما هو يوماً معها إذ بكى.

فقالت: ما يبكيك؟

فقال: إني نظرت إليك، فقلت أموت فتتزوج بعدي، فأسفتُ بك، ولحقتني حسرة عليك.

---

(١) ص: (١٥٧).

قالت: فلعلك أن تبقى بعدي؟

قال: إن بقيت بعدك، فلك عهد اللّٰه أني لا أتزوج ما حييت.

قالت: واللّٰه مني مثل ذلك، وتعاهدا وتواثقا.

ثم إن الفتى خرج مع قتيبة بن مسلم الباهلي، إلى خُراسان، فلم يزل يقاتل بين يديه حتى طُعِن، فسقط عن فرسه، فقال وهو يجود بنفسه:

ألا ليت شعري عن غزال تركته
إذا ما أتاه مصرعي كيف يصنع
أيلبس أثواب السواد تسلّيا
على مالك أم فيه للبعل مطمع
فلو أنني كنت المؤخَّر بعده
لما لبثتْ نفسي عليه تقطع

قال: ثم مات، فبلغ الرَّباب ذلك، فكاد الحزن يقتلُها، وذابت حتى لم يبق منها إلا خيال، وكانت لا

تهدأ من البكاء والشهيق، فتشاور أهلها فيها، وقالوا: لو زُوّجت لَسَلَتْ!.

فزوجوها على كُره منها، فلما كانت الليلة التي أرادت أن تُزَفَّ فيها إلى زوجها نامت، وأمها عند رأسها، فرأت في منامها مالك بن نصر، زوجها الأول، آخذاً بعضادتي الباب، وهو يقول:

حيَّيتُ ساكني هذى الدار كلهمُ
إلا الرَّبابَ فإني لا أحييِّها
استبدلت بدلا غيري وقد علمت
أن القبور تواري من ثوى فيها

فانتبهتْ مذعورة، وذكرت لأمها ما رأت.

فقالت: يا بُنَيَّة، ارقدي، فهذا من عمل الشيطان، وتعوّذي منه.

فوضعت رأسها، وأتى خيال زوجها مالك، فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال:

قد كنت أحسبها للعهد راعية
حتى تموت، وما جفّت مآقيها
أمست عروساً، وأمسى مسكني جدثا
حتى تموت فإني ما ألاقيها
أمسيت في حفرة يبلى الحديد بها
لا يسمع الصوت نفسا من يناديها

فانتبهتْ مذعورة، فخرَّقت ثيابها، وقطّعت جلبابها، ونقضت مشطها، وعاهدت اللّه لا يجتمع رأسها مع رأس رجلَ ما عاشت.

.. فلم تلبث إلا قليلا حتى ماتت».

لاشك أنها قصّة مسلّية، وفيها من عناصر القصص التي تؤلف عن البادية أو أبناء البادية ما يجعلها واحدة منها.

وأول الملاحظات أن خالداً القسري كان في المدينة، بدليل اجتماع سُمّاره وخواصه به، ومع ذلك فالقصة

عن فتى وفتاة من الأعراب، إذاً، فأبو حمزة اليماني لم يجد منبعاً يغرف منه أداة تسلية خالد إلا رائحة البادية، ولكنه سرعان ما ينسى أنهما في البادية أعراب، فيوقف الزوج بين عضادتي الباب مرتين، بدلاً من عمودي خيمة.

ثم يأتي الشعر ليعطي القصة طعمها المعتاد كاملاً، ولم يتبصر في البيتين اللذين قالهما الزوج عندما تزوجت الفتاة، فمعانيهما بعيدة عن الموضوع، وبما أن الأمر وقف عندهما، فجاء من لاحظ هذا فأكمل القصة بالأبيات الأخيرة، فيما بعد.

ونسي القاص، أو المؤلف، أنها مغصوبة على الزواج من قبَل أهلها، فكيف يُحيِّيهم ويؤكد أن التحية لهم جميعاً، وهم المخطئون عليه، ويستثنى الرباب، وهي المضغوط عليها، إن فيها من روح «ألف ليلة وليلة» شيء في أسلوبها، وضعف شعرها.

والأصمعي أحاديثه التي يرويها لتخدم أغراضه، (ونعود فنؤكد: إن كان هو مؤلفها، لا متَّخذاً مشجباً لمادح آخر) أحد عناصرها البادية، أو أحد أبنائها، وهنا قصة في كتاب: «المختار من نوادر الأخبار»[1]، في محاولة للأصمعي تعزيز سمعة «طلحة الطلحات» في الكرم، استعار لها أعرابياً، وإعطاء أعرابي مُدْقِعٍ مبلغاً سخياً، لم يتوقع هو ربع معشاره، يجهِّمَ الكرم ويضخمه، وهذه هي القصة:

«روي عن الأصمعي، قال:

لقي أعرابيٌّ «طلحة الطلحات»، فقال:

إن ترى أن تفيض عليَّ مما أفاض اللّه عليك.

قال: فقال: يا غلام، أحث له ما في خرجك.

قال: فحثا له حتى امتلأ كُمُّهُ دنانير.

فبكى الأعرابي.

(١) ص: (٢٦).

قال: فقال له: ما يبكيك، يا أعرابي؟
لعلك لم يكفك ما أخذته، واستقللته!.
قال: لا والله، ولكني أبكي على كريم مثلك، يواريه التراب.
فقال: يا غلام، إدفع الخرج كما هو».

قصة جميلة، ولكنها لا تصمد للنقد، ماذا لو جاء آخر بعد مسافة قصيرة من الطريق، فماذا سوف يعطيه، يجوز أن هناك خرجاً آخر، وثانياً، وثالثاً!، ماذا عن الغلام، إذا كان سيده يعطي من غير عد، ألا يجعله يأخذ بدون حساب، لأنه لا مجال لمحاسبته؟

ومعن بن زائدة من الأشخاص الذين وجد فيهم الوُضَّاع مجالاً للوضع، فوضعوا قصصاً تبين كرمه، وتؤكد حلمه، وتشيد بسعة صدره.

والقصة الآتية من القصص التي درسناها في أواخر المرحلة الابتدائية، وهي ترد في كثير من كتب

التراث، والمؤمنون بأنها حدثت فعلاً كثيرون، ولكننا ومن يمعن في فحصها نجد أنها مما أُلِّف وحُبِّر بعناية.

والقصة أوردها من جملة ما أوردها المقري، في كتابه: «المختار من نوادر الأخبار»[1]، وهذه هي:

«دخل أعرابي على معن بن زائدة، وكان معن رجلا حليماً، فأنشده الأعرابي:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة

وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال معن: أذكر ذلك، ولا أنساه، يا أخا العرب.

فقال الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك مُلكاً

وعلّمك الجلوس على السرير

فقال: ذلك من فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

فقال الأعرابي:

(١) ص: (٩١).

فلا واللّه ما إن جزت يوما

على معن اسلّم بالأمير

فقال: يا أخا العرب، السلام سنّة من سنن الإسلام، إن أتيت به أجرت، وإن تركته أثمت.

فقال الأعرابي:

سأرحل عن بلاد أنت فيها

ولو جار الزمان على الفقير

فقال معن: إن سكنت لم ينلك منا إلا خيراً، وإن رحلت فمصحوب بالسلامة.

فقال الأعرابي:

فجُد لي يا ابن ناقصة بمال

فإني قد عزمت على الرحيل

فقال معن: يا غلام، أعطه ألف دينار يستعين بها على سفره، وبُعده عنا، ورحيله من أرضنا.

فقال الأعرابي:

قليــــل مــامننت بـــــه وإنــــي
لأطمع منك بالشيء الكثير

فقال معن: يا غلام، أعطه ألف دينار أخرى.

فلما أخذها، قال:

فثلّث قد ملكت الأرض طُرّاً
بـلا عـقل ولا لُـبٍّ خطيـر

فقال: أعطه ألف دينار ثالثة.

فقال الأعرابي: أيها الأمير، إنني جئت أختبر حلمك وعقلك، وجودك، لما سمعت عنك، والله لقد وجدت من ذلك ما لـو قسّموه على أهل الأرض لكفاهم.

قال معن: يا غلام، كم أعطيته على نظمه؟

قال: ثلاثة آلاف دينار.

قال: ادفع له على نثره مثلها.

فأخذ الأعرابي ستة آلاف دينار، وتوجه من

عنده شاكراً».

وهكذا بقي المدح، وبقي اسم معن بن زائدة مشعاً منيراً، يخترق القرون، ويتخلل السنوات، وينتقل من مخطوط إلى مخطوط، ومن مخطوط إلى اقتباس.

أما الأعرابي فلا اسم ولا قبيلة، ولكنه بقي ذكر للأعراب عندما تقتضي الحاجة، إذ تعن فكرة، أو يقلق أمير، أو يسمر سامر!!.

وقبل ختام هذه المقالة، التي طالت، لسعة مدلولها، وكثرة ما ورد عما احتوته، ننقل قصتين جاءتا عن أمر واحد، واحدة منهما مقبولة، لما فيها مما يتفق مع الواقع والدين والعقل والمنطق، والثانية دخلها الخيال، وتغشتها الخرافة، وأصبحت بهذا غير مقبولة كلها، وهي تُري جانباً من الجوانب التي يدخل منها النحل، والنحل هنا جاء وهماً من الراوي، أو عدم رضى منه بالواقع، وأراد أن يزينه بالخيال، فالكحل

الذي أراد به تمليح العين، وتزيينها تسبَّبَ لها بالعمى الكامل.

وهذه القصة وردت في كتاب: «الحدائق الغنّاء في أخبار النساء، ص: ١٧٣»[1] عن ليلى الأخيلية، وميدانها الصحراء:

«قال أبو العباس الأزدي:

«خرج زوج ليلى الأخيلية بليلى، فمرّا على قبر توبة بن الحمير، فقال لها:

يا ليلى، هذا الذي يقول فيك:

فلو أن ليلى الأخيلية سلَّمت
عليَّ، وفوقي تربة وصفائح
لسلَّمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

فقال: أنت طالق إن لم تسلّمي عليه، حتى أنظر

(١) تأليف أبو الحسن علي بن محمد المعافري المالقي، تحقيق وتقديم دكتورة، عايدة الطيبي، الدار العربية للكتاب ـ ليبيا، تونس.

ما يَردُّ عليك.

فقالت: وما دعاك إلى عظام قد رُمّت؟

قال: هو ما سمعت.

فدنت منه، وقالت: السلام عليك يا توبة، فتى الفتيان، وسيّد الشبّان.

قال: وكانت قطاة قد عششت في جانب القبر، فلما سمعت الصوت نفرت، فخرجت تقول: «قطا، قطا».

فلما سمعت ناقة ليلى الصوت نفرت بليلى، فسقطت، واندقّت عنقها، وماتت..».

قصة طريفة، ومقبولة، لولا ملاحظات طفيفة تنثر رشاش شك حول وقوعها، ومنها:

الصدفة، وهي أداة حارقة من أدوات النقد لما هو مؤلّف ومنحول، وسيف مسلط على إنتاج الكتّاب الذين يقفون خلف ستار، يظنون أنهم بهذا يلعبون

في مقومات ذهن القارئ.

كَلَفٌ آخر يبرز في صفحة وجه القصة، وهو سرعة زوج ليلى الأخيلية برمي الطلاق عليها، إن لم تُسلِّم على توبة في قبره، قبل أن يعرض عليها زوجها أن تسلِّم، ولو عرض، وتأبّت، لأصبح مقبولا منه أن يحلف بالطلاق.

ولما سلَّمت ليلى لم تسلِّم سلام المغصوب، وإنما سلَّمت، ومدحت مدح محب معجب، وقالت قولاً يتوقع أن يثير الغيرة في صدر زوجها.

وقبور ذاك الزمن في البريّة، قبور ساذجة، حفرة، وتراب مردوم، وحجار مما يوجد قريبا من القبر، والقبور تختفي بعد سنوات قليلة، حتى لا تُرى، ولا أظن القطا يبيض في مثل هذا المكان، لأن عنده ما هو أكثر أماناً، أمام الثعالب، وابن آوى، والصقور، والحداء، والجراذي، وغيرها.

ومع ذلك فهذه القصة قد تقبل بارتياح إذا قورنت مع الصيغة الاتية للقصة نفسها:

«حدّث إبراهيم بن زيد النيسابوري، قال:

إن ليلى الأخيلية، بعد موت توبة، تزوجت، ثم إن زوجها، بعد ذلك، مرّ بقبر توبة، وليلى معه، فقال لها:

يا ليلى، هل تعرفين هذا القبر؟

فقالت: لا.

قال: هذا قبر توبة، فسلّمي عليه.

فقالت: امض لشأنك، فما تريد من توبة، وقد بُليت عظامه؟

قال: أريد تكذيبه، أليس هو الذي يقول:

فلو أن ليلى الأخيلية سلّمت
عليَّ، وفوقي تربة وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح

فوالله لا برحت، أو تسلِّمي عليه.

فقالت: السلام عليك يا توبة، ورحمك الله، وبارك لك فيما صرت إليه.

فإذا طائر قد خرج من القبر حتى ضرب صدرها، فشهقت، فماتت.

فدفنت إلى جانب قبره، فنبتت على قبره شجرة، وعلى قبرها شجرة، فطالتا، فالتفّتا».

لولا الخرافات التي أضيفت لكانت، لبدئها الحسن، قبلت القصة، وجاءت أصح من سابقتها، ولكن الخرافات شوهتها.

الخرافة الأولى خروج طائر من قبرها يوحي بأن في ذهن القاص، ما كان متعارفاً عليه في الجاهلية، من أن طير الهامّة يصيح للقتيل حتى يؤخذ بثأره، وفي صياحه يقول: اسقوني، فَهُذِّب هذا الاعتقاد، وأتي به بصورة طائر، نفر من القبر.

ثم الخرافة الثانية، وهي أن شجرة نبتت على قبره وقبرها، ثم لم يكف هذا، وإنما زاد القاص أنهما التفتا بعضهما على بعض، وهذا بيت القصيد، لماذا لم تنبت الشجرة من قبل على قبر توبة، فتبيض عليها الحمامة، وتفرّ منها، ويجفل الجمل، ويكون الأمر مقبولاً في هذا المقطع من القصة؟!

ترى هل بقي زوجِ ليلى متفرجاً على هذا الالتفاف، وترك هذا العناق المَوْتَوي أمام عباد اللّه؟ ظنناه في حرصه على تكذيب توبَة في شعره منطلقا من منطلق الغيرة، هل اختفت الغيرة فجأة، أو نسيها مؤلف القصة بعد أن وصل إلى بغيته؟!

***

وبعـــد:

اللّه وحده أعلم بما جاء في هذه القـصص من واقع، وما فـيها من خيال، ولكن هذه القـصص لن تمحو من ذهننا، قُراءاً، صـورةً ترسَّبت عن البادية ورجالها، نقشتها هذه القصص، ونقرها حفراً هؤلاء الرواة القُصاص.

***

الفهـــارس

صفحة

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٣٥٧

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٣٥٨

(٣) فهرس الأسماء ٣٥٩

(٤) فهرس الأماكن ٣٧٧

(٥) فهرس المراجع والمصادر ٣٨١

(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٣٨٧

(١) فهرس المواضيع

حسب ورودها

صفحة

(١) المقدمة ٥

(٢) تحية للنساء ٣٩

(٣) سياسة وسائسون ١٠١

(٤) هفوة نيـة ١٢٧

(٥) عظة من أديب ١٥١

(٦) توخي النفع ١٦١

(٧) تفكّه الأدباء ١٧٧

(٨) وصف مرذول ١٩٩

(٩) من وحي الصحراء ٢٢١

(٢) فهرس المواضيع

حسب حروف الهجاء

صفحة

(١) تحية للنساء ٣٩

(٢) تفكّه الأدباء ١٧٧

(٣) توخي النفع ١٦١

(٤) سياسة وسائسون ١٠١

(٥) عظة من أديب ١٥١

(٦) المقدمة ٥

(٧) من وحي الصحراء ٢٢٠

(٨) هفوة نية ١٢٧

(٩) وصف مرذول ١٩٩

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

عبيد بن الأبرص : ١٧١

ليلى الأخيلية : ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٢

بنو نصر بن الأحمر : ١٧٠

آدم : ١٨١

أبو العباس الأزدي : ٣٤٧

حمدون بن اسماعيل : ١٢٨

ابن الأشعث : ٧٠، ٧٣

الأصمعي : ٨٦، ٨٧، ١٢٣، ١٢٤، ١٩٠، ١٩١، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٦٨، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣٤١

يحيى بن أكثم : ١٧٠

الأمويـــون : ٥٠

الأميـــــــن : ١٣٥
بنــو أميــــة : ١٣٣
شمس الدين محمد بن أحمد المقري الأنباري : ٤٦
مالك بن أنس : ١١٦، ١١٧
الأنصـــــار : ١٠٦
محمد بن يوسف أبو الحجاج بن اسماعيل أبو الوليد الأنصاري
الخزرجي : ١٧٠
أسماء بنت يزيد الأشهلية الأنصارية : ٤٨

(ب)

سعيد بن سلم الباهلي : ٣١٩ ، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٣٠
قتيبة بن مسلم الباهلي : ٣٣٧
باهلـة : ٣١٩، ٣٢٤
البرامكة : ١٤، ٢٨٥
بلال بن أبي بردة : ٣٣
خالد البرمكي : ١٤، ١٥
قبيلة بكر : ١٣٥

عبيد الله بن أبي بكرة : ٨٧، ٨٨
أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان : ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٥

(ت)

إطلالة على التراث : ٥، ١٦
ترحيل (الملك) : ٦٨
بنو تميم : ٢٤٩

(ث)

ثابت : ١٨١
الثعالبي : ١٤، ١٥
ثقيف : ٢٩٥
أبو ثور : ١٩٥

(ج)

الجاحظ (عثمان بن عمرو بن بحر) : ٣٢، ١٩٢، ١٩٦، ٢٤٢، ٣٠٢، ٣١٥، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٣١، ٣٣٢

الحسن الجرجاني : ٣٠٢
جريـري : ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٧
أبو عبدالله بن الجصاص : ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧
جميلة : ٢١٤
علي بن الجهيم : ٢٨٨
جيـداء : ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٣
عبدالرحمن بن الجوزي : ١٧٨، ٢٠٤

(ح)

أوس بن حارثة : ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٥، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٨٠، ٢٨١، ٣١٨
حجر (الملك) : ٦٨
أبو الحسن : ٣٣

إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب : ١١٩، ١٢٥
محمد بن عبدالله بن الحسن : ١١٩
العباس بن الحسن (الوزير) : ٢١٦، ٢١٧
محمد بن علي بن طاهر بن الحسين : ١٤٧
الحطيئة (جرول) : ٩٢
ابن أبي حفصة : ٢٠٧
مروان بن الحكم : ٥٠، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣
توبة بن الحمير : ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢
الشروي الحَميمي : ٢٢٤
اسماعيل بن حمادة ابن أبي حنيفة : ١٩٢
حنظلة : ٢٤٩
عبدالحميد الحنفي : ٣٠٢
حواء : ١٨١

(خ)

بشر بن خازم : ٩٣، ٩٥
الوزير الخاقاني : ٢١٥

الفضل بن يحيى بن خالد : ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١
الحسين الخليع : ٣١٥
شوقي أبو خليل : ١٠، ١١، ١٣
الخيـــزران : ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ٢٠٨

(د)

أبو الوليد بن أحمد بن دؤاد : ١١٥
سليمان بن داوود : ٢٨٣
أبو الأسود الدؤلي : ٨٦
دعبـــل : ١٤٣
أبو دلامة (زيد بن الجون) : ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥
النضر بن ذيبان : ٥٨

(ر)

الربـاب : ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٠
الربيـع : ١١٩
ربيعــة : ٢٨٧

الفضل بن الربيع : ١١٧، ١٢٣، ٢٠٨، ٢٣١
رسول الله (ﷺ) : ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٨١، ١٠٠، ١٠٥، ١٠٦، ٢٢٤
هارون الرشيد : ٩، ١٠ (هـ)، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٢٣، ١٧١، ١٧٥، ٢٠٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٨٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣٣٠، ٣٣١

(ز)

عبد الله بن الزبير : ٧٠، ٧٢
معن بن زائدة : ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦
زبيدة : ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٦
عبدالله بن زياد : ١١٧
زينب (حبيبة نصيب) : ٢٤٥، ٢٤٦

(س)

أبو السائب : ٢١٦
سعاد : ٢٥٨، ٢٥٩
سعدى (أم أوس بن حارثة) : ٥٨، ٦٠، ٦١، ٩٣، ٩٤، ٩٥

أبو العباس عبدالله بن علي السفاح : ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٦،
١٢٥، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧،
٢٢٨، ٢٥٧
معاوية بن أبي سفيان : ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٧، ٦٠، ٦٢، ٦٣،
١٨٠، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٠
السلامي (الشاعر) : ٢٠٤
أم سلمة : ٧٥، ٧٨، ٧٩، ٨٢، ٨٣
محمد إبراهيم سليم : ٤٦ (هـ)
سليمان : ٢١٥
محمد بن سليمان : ٢١٥
الفضل بن سهل، (أمه) : ٦٤
الفضل بن سهل : ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧
محمد بن سهل : ٢٧١، ٢٧٧

(ش)

محمد الحمد الشبيلي : ٤٧
شديد : ١٨١
شريح (القاضي) : ٣٤

عبدالله بن شريك : ١٥
الشعبي : ١٢١، ١٦٢
الشماخ : ١٢٢
حميدان الشويعر : ٢٦١

(ص)

أبو الحسن الصابي : ٢٠٠
الفيض بن أبي صالح : ١٢٤
بنو عامر بن صعصعة : ٢٢٣
خالد بن صفوان : ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٣
صعصعة بن صوحان : ١٩٧
الصولي : ١٥
محمد بن عمر الضبي : ٢٠٩
عثمان بن الضحاك : ٢٤٥، ٢٤٧

(ط)

حاتم الطائي : ٢٨٣

محمد بن صالح بن عبدالله بن
الحسين بن علي بن أبي طالب : ٣٠٨
إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله (أسد الحجاز) : ١٠٤،
١٠٥، ١٠٦، ١٠٧
طلحة الطلحات : ٢٨٣، ٣٤١
أبو حشيشة الطنبوري : ١٢٨

(ع)

بنو عامر : ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٩٨، ٢٩٩
إحسان عباس : ٧٦ (هـ)
بنو العباس : ١٣٣
زينب بنت سليمان بن عبدالله بن عباس : ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤،
١٥٥، ١٥٦، ١٥٨
الملك عبدالعزيز : ٣٢٥، ٣٢٦
الأمير محمد بن عبدالعزيز : ٣٢٦، ٣٢٧
الأشتر بن عبدالله : ٣٠٩، ٣١٠، ٣١١، ٣١٣
بنو عبدالمدان : ٢٢٣
عبدالمطلب : ٢٧٨

سليمان بن عبدالملك : ٢٠٢
الوليد بن عبدالملك : ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣
يزيد بن عبدالملك : ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٧
محمد بن عبدالملك (وزير المعتصم ثم الواثق) : ١١٤
أحمد بن عبيد : ٢٥٣
أبو عبيدة : ٨٥
حذافة بن غانم بن عدي بن كعب العدوي : ٢١١
ابن عرابة (المؤدب) : ٢٠٩
عضد الدولة : ٢٠٤، ٢٠٥
الوليد بن عتبة : ١٣٧
عماة بن عقيل : ٢٠٧
داوود بن علي : ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٢٨
سليمان بن علي (راع الداخلة) : ٢٦١
يوسف بن عمر : ٣٠٤
ابن طفيل بن عامر العمري : ٢٩٢، ٣٠٠
أبو عمرو : ١٩٧
قيس عيلان : ٢٢٣

(ف)

أبو موسى الفضل : ١٥٣

محمد بن فهد : ٢١٣

الوزير أبو القاسم ابن المعتز : ٢١٨

(ق)

قريش : ٢٧٨

ابن القرّيّة : ٣١٨

خالد بن عبداللّه القسري : ٢٨٣، ٣٣٦، ٣٣٩

هشام بن عمرو القوطي : ١٧٨

قبيلة قيس : ١٣٥

محمد بن قيس : ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦

(ك)

بنو الحارث بن كعب : ٢٢٣

المهاجر بن عبداللّه الكلابي : ١٣٣

كليلة ودمنة : ٢١

الكميت : ٥٨
كنانة : ٢٧٨
الحارث بن عوف الكندي : ٦٦

(ل)

لقمان (عليه السلام) : ٢٨٣
المطلب، غلام أبي لهب : ١٩٤

(م)

مالك : ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨
المأمون : ٦٤، ١٢٠، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ٢٠٧
المتوكل : ٣٠٨
أبو ثور المجنون : ٢٣٠
إبراهيم بن محمد : ١٠٤، ١٥٥
مروان بن محمد : ١٢٥

عبدالملك بن مروان : ٦٩، ٧٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧،
١٠٨، ١٢١، ١٢٢، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٣٧،
٢٤١
مريّة بت مروان بن محمد : ١٥٥، ١٥٦
أبا السائب المخزومي : ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨
المساور : ٩٧
المسدود : ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠
مسلمة (الملك) : ٦٨
يزيد بن معاوية : ٢١٠
ابن المعتز : ٢١٠، ٢١١، ٢١٣
معدي كرب : ٦٨
المعتصم : ١١٤
المقتدر باللّه : ٢٠٠
المقري : ١٠٣
عبداللّه بن المقفع : ٢١
أبو علي بن مقلة : ١١٢، ١١٣
المكتفي : ٢١٥، ٢١٦
الخنساء بنت ملحم : ٦٦

أبو جعفر المنصور : ١١٩، ١٢٥، ١٢٦
عيسى بن جعفر المنصور : ٢٣١
علي بن يحيى بن أبي منصور : ١٤٨
المهاجرون : ١٠٦
المهدي : ١٥٣، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٧١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥
إبراهيم بن المهدي : ١١، ١٢
داوود المهلب : ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤
أبو الحسن علي بن عمرو الموصلي : ٢١٤
ميـة : ٢٩٦

(ن)

أبو تغلب ابن ناصر الدولة : ٢١٤
نصيب (الشاعر) : ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧
مالك بن نصْر : ٣٣٦
النعمان بن المنذر : ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢
نمير : ٣٠٩، ٣١٠
عبدالله بن بريك النميري : ١٤

أبو نـواس : ٢٠٥، ٢٠٦
إبراهيم بن زيد النيسابوري : ٣٥٠

(هـ)

بنو هاشم : ٢٢٤
الهامـة : ٣٥٢
علي بن هذيل : ٢٤٨
إبراهيم بن هرمة : ١٨٨
بنـو هـلال : ٣٠٩
هــوزان : ٨٨

(و)

الواثق (هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد) : ١١٤، ١١٥، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١
وثيــق : ١٨١
الوشـاء : ٢٥٣
عبدالعزيز بن الوليد : ٢٠٧

(ي)

أبو حمزة اليماني : ٣٣٦، ٣٤٠

يوسف، عليه السلام : ٢٨٣

أحمد بن يوسف : ١٢٠، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩

(٤) فهرس الأماكن

(أ)

كلية الآداب : ٢٠

الأهـواز : ٩٧

(ب)

البصرة : ٨٥، ٨٧، ٩٧، ٩٨، ٣١٥

بغـداد : ١٣٥، ٣٠٢

(ت)

قسم التاريخ : ٢٠

(ح)

الجسـر : ٢٨٨

قسم الجغرافيا : ٢٠

حديقة الحيوان : ١٩

الحرمين : ١٠٤، ١٠٨

(خ)

خراسان : ١٤٥، ١٤٧، ٣٣٧

(د)

دمشق : ٥١

(ر)

الرصافة : ٢٨٨

الرقة : ١١، ١٣

مدينة الرياض : ١٩

(س)

جامعة الملك سعود : ٢٠

(ش)

الشام : ٣٥، ٤٢، ٧٣، ١٠٤، ١٨٨، ٢٤١

(ط)

الطائف : ٧٧، ٣٠٤

(ع)

العتيبية (بمكة) : ١٤٠
العــراق : ١٠٨، ١٤٤
عنيــزة : ٦ (هـ)

(ق)

القصيــم : ٣٢٦، ٣٢٨

(ك)

الكعبة : ٢٤٨
كور فارس : ١٥
الكوفة : ٤٢، ٢٣٣، ٣٠٢

(م)

المدينة المنورة : ٧٣، ٧٧
مكة المكرمة : ٦ (هـ)، ١٠٨، ١٤٠، ١٩٧

(ن)

نجــد : ٣٢٧

(و)

واسط : ١٩٥، ٢٢٩

(ي)

اليمامة : ٧٧، ١٣٣

(٥) فهرس المراجع والمصادر

(١) آداب الملوك :

لأبي منصور عبدالملك الثعالبي

تحقيق الدكتور جليل العطية

دار الغرب الإسلامي

بيروت، الطبعة الأولى : ١٩٩٠م

(٢) كتاب الأذكياء :

للحافظ جمال الدين أبي الفرج

عبدالرحمن بن علي بن الجوزي القرشي البغدادي

مركز سندباد، دار ابن حزم، عمان

الطبعة الأولى : ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

(٣) أنباء نجباء الأبناء :

لبرهان الدين أبي هاشم محمد بن أبي محمد بن مظفر

مراجعة وتعليق الفريق : يحيى بن عبدالله المعلمي.

مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي
١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

(٤) البيان والتبيين :
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق حسن السندوبي
دار إحياء العلوم ، بيروت
الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م

(٥) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي:
لأبي الفرج الجريري، تحقيق الدكتور: إحسان عباس
عالم الكتب ، بيروت
الطبعة الأولى : ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م

(٦) الحدائق الغنّاء في أخبار النساء :
لأبي الحسن علي بن محمد المعافري المالقي
تحقيق وتقديم الدكتورة: عايدة الطيبي
الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس
طبعة : ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م

(٧) في طرق البحث :

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الطبعة الأولى - الرياض

١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م

(٨) كليلة ودمنة :

لعبدالله بن المقفع

الطبعة الثانية ، دار الشروق ، بيروت

١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م

(٩) المحاسن والأضداد :

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

دار إحياء العلوم ، بيروت

الطبعة الأولى : ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

(١٠) المختار من نوادر الأخبار :

لشمس الدين محمد بن أحمد المقري الأنباري

تحقيق: محمد إبراهيم سليم

مكتبة القرآن: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م

(١١) المستطرف في كل فن مستظرف
لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الإبشيهي
شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان
١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م

(١٢) مقالات الأدباء ومناظرات النجباء
لابن هذيل الفزاري الغرناطي
تحقيق : محمد أديب الجادر
دار البشائر ـ بيروت
الطبعة الأولى : ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م

(١٣) الموشَّى أو الظرف والظرفاء
لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء
دار صادر ، بيروت

(١٤) الهفوات النادرة :
لأبي الحسن محمد بن هلال الصابي
تحقيق : عبدالله بن عابد الحربي

دار الشريف للنشر والتوزيع - الرياض
الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

(١٥) هـارون الرشـيد:
«أمير الخلفاء، وأجلّ ملوك الدنيا»
لشوقي أبي خليل
دار الفكر، الطبعة الثالثة
١٤٠١هـ/ ١٩٨١م

(٦) فهرس الأشعار

(ب)

خطبت كما لو كنت مت قبلها
لكانت، بلاشك، لأول خاطب
٢٥٧

بزينب ألمم أن يرحل الركب
وقل إن تملينا فما ملك القلب
٢٤٥

أبى القلب إلا حب «سعدى» وبغضت
إليّ نساء ما لهن ذنوب
٦١

(ح)

فلو أن ليلى الأخيلية سلَّمت
علي وفوقي تربة وصفائح
٣٤٧

فلو أن ليلى الأخيلية سلمت
علي وفوقي تربة وصفائح
٣٥٠

أتصحو أم فؤادك غير صاح
عشية همّ صحبك بالرواح
٢٠١

(د)

أولى الأمور بضيعة وفساد

أمــر يـدبــره أبو عـــبـــاد

١٣٩

أنا الشجاع الذي ألفيتني رمضا

واللّه يكشف ضر الحائر الصادي

١٧٥

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب

ومن هموم تضل المدلج الهادي

١٧٤

وكـأنـه مـن دير هـزقل مـفلـت

حـرد يجـر سلاسـل الأقيـاد

١٤٣

إني من القــوم الذيـن سيــوفهـم

قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

١٧٤

ألا ما للحبيبة لا تعود

أبُخل بالحبيبة أم صدود

٢٧٣

عداني أن أزورك يا حبيبي

معاشر كلهم واش حسود

٢٧٤

بقلبي شيء لست أعرف وصفه

على أنه، ما كان، فهو شديد

٢٦٥

(ر)

هذا وإن كان ذا جوع وإضرار
أعزّ عندي من قومي ومن جاري
٦٢

في القلب منّي نار
والنار فيها استعار
٥٦

لا تجعلن فداك اللّه من ملك
كالمستجير من الرمضاء بالنار
٦١

يا هجر كفّ عن الهوى ، ودع الهوى
للعاشقين يطيب يا هجر
٣٦٦

ولائمة لامتك يا فضل في الندى
فقلت لها: هل يقدح اللوم في البحر

٢٨٩

ملوك وأبناء الملوك، وسادة
تفلق عنهم بيضة الطائر الصقر

٢١١

آمنت بداوود وجود يمينه
من الحدث المرهوب والبؤس والفقر

٢٨٣

لن يقبل اللّه من معشوقة عملاً
يوماً وعاشقها حيران مهجور

٣١٧

قليل ما مننت به، وإني

لأطمع منك بالشيء الكثير

٣٤٥

أتذكر إذ لحافك جلد شاة

وإذ نعلاك من جلد البعير

٣٤٣

(س)

إذا خدمت الملوك فالبس

من التوقّي أعز ملبس

١١٩

(ع)

ألا ليت شعري عن غزال تركته

إذا ما أتاه مصرعي كيف يصنع
٣٣٧

(ك)

قالوا أضر بنا السحاب بقطره
لما رأوه لعبرتي يحكي
٢٦٣

(ل)

معاوي يا ذا الجود والحلم والفضل
ويا ذا الندى والعلم والرشد والبذل
٥٣

فإياك إياك المزاح فإنه
يجري عليك الطفل والدنس النذلا
٢٥٤

ولو قيل للمعروف: ناد أخا العلا

لنادى بأعلى صوت يا فضل يا فضل

٣٨٨

ما بال «مية» لا تأتي كعادتها

هل هاجها طرب أو صدها شغل

٢٩٦

أضحى إمام الهدى «المأمون» منشغلا

بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

٢٠٧

(هـ)

بيض أوانس ما همن بريبة

كظباء مكة صيدهن حرام

٣١٧

وليت ويحك أمراً لست تدركه

فاستغفر اللّه من فعل امرئ زان

٥٧

لا تعجلن أمير المؤمنين فقد

أوفى بنذرك في رفق وإحسان

٥٩

ألا أيها الليث المدل بنفسه

هبلت لقد جرت يداك لنا حزنا

٢٩٩

كنا على ظهرها والعيش ذا مهل

والدهر يجمعنا والدار والوطن

٢٩٨

يارب إنــك ذو مَنٍّ ومــغــفــرة

يـبـيـت بـعـافـيـة مـنـك المحبينا

٢٦٢

كيـف الـهـجـاء ومـا تـنـفـك صـالحـة

من آل لام بظهر الغيب تأتيني

٩٣

مــن المـســـدود فــي الأنــف

إلــى المـســـدود فـي الــعـين

١٢٨

وقـد عـرقـت مـغـابنـهـا ، وجـادت

بـدرتـهـــا قــرى حــجــن قـنـيـن

١٢٢

أنعم اللّه بالخيالين عينا

وبمسراك يا «سعاد» إلينا

٢٥٨

(هـ)

يا أيها الشخص المضل مركبه

ما عنده من ذي رشاد يصحبه

١٧٣

هُم قتلوه كي يكونوا مكانه

كما فعلت يوماً بكسرى مرازبه

١٣٦

دنَّ القلم والسجلة

واكتب يا صاح باسم اللّه

٢٦١

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه

ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

٢٠٨

حييت ساكني هذي الدار كلهم

إلا الرباب فإني لا أحييها

٣٣٨

نبذة عن المؤلف

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ.
- حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- عين في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود.
- عين وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ.
- درّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف.
- عين في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء.

كتب صدرت للمؤلف

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب: الشيخ أحمد المنقور في التاريخ.
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب: «عثمان بن بشر».
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب: «في طرق البحث».
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة العربية.
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة الإنجليزية.
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ونشره.
- حقق كتاب: «حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
- من حطب الليل، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين».
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب: «أي بُني» في خمسة أجزاء.
- ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب: «إطلالة على التراث» الأجزاء الستة عشر، وبين يديك الجزء السابع عشر.
- ألَّف عام ١٤١٨هـ كتاب: «يوم وملك».
- ألَّف عام ١٤٢٤هـ كتاب: «لمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية».

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٧٨٠ ـ ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض
E. Mail: safir777press@hotmail.com

ردمك: ٠ ـ ٢٦٤ ـ ٤٤ ـ ٩٩٦٠